علي يوسف علي

الميري وترابه

مواقف وطرائف من الحياة الوظيفية

أجيال
تسويق ونشر
أجيال لخدمات التسويق والنشر

2007

الكتاب: الميري وترابه

مواقف وطرائف من الحياة الوظيفية

المؤلف: م/ على يوسف على

الناشر: أجيال لخدمات التسويق والنشر / القاهرة

الطبعة الأولى: القاهرة 2007

رقم الإيداع: 2006 / 15176

الترقيم الدولي: ISBN: 977-279-464-0

الجمع والصف الإلكتروني

القسم الفني للشركة

إشراف وتنفيذ: م/ إيمان خفاجى

طباعة: دار الأمين – القاهرة

الميري وترابه

مواقف وطرائف من الحياة الوظيفية

المدير العام

خالد عبد الصمد خفاجي

الأشراف العام

محمد محمود أبوزيد



تسويق ونشر

أجيال لخدمات التسويق والنشر

الإدارة والمكتبة: 449 ش السودان - المهندسين

الدور الأول- شقة 4

أمام مجمع محاكم شمال الجيزة.

التسويق: 0123705024-0103349988

Email: aagyal@yahoo.com

aagyal@hotmail.com

إهداء

إلى كل من علمني حرفا،

أفسد به ما بيني وبين الميري العتيد

علي يوسف علي

تنويه هام

يشهد المؤلف ربه أنه لم يقصد بتأليف هذا الكتاب إلا المصلحة العامة وممارسة النقد البناء لتحقيق تلك المصلحة، وأنه أبعد ما يكون عن أن يكون دافعه الرغبة في تشهير بأحد أو تصفية حسابات شخصية.

ومن ثم فقد بذل كل جهده لإخفاء أسماء أشخاص روايته وأماكن وأزمنة أحداثها، اللهم إلا ما كان منها مرتبطا بوقائع تاريخية معلومة للكافة.

ومن جهة أخرى فإن أحداث الرواية تدور بصفة قاطعة في مناخ الوظيفة العامة، ومن ثم فهي خالية تماما عن أية إسقاطات أو توجهات سياسية، فذلك من شأنه أن يخرج الكتاب عن الغرض الذي وضع من أجله.

وعلى أساس من هذين المحورين كانت الخطة العامة لتأليف الكتاب.

مقدمة

أن يحكي إنسان عن معاناته في رحلة حياته فهـذا لـيس مـن الاستثناء في شيء، بل الاستثناء ألا يجد المرء ما يعاني منه خلال تلك الرحلة، فهذا لن يكون في قدر أحد من البشر. والقصة من هذه الزاوية مكررة لا تثير في نفسي حماسا لروايتها، وربما لو فعلت، لا تثير في نفس القارئ حماسا لقراءتها.

ولكن حين تكون المعاناة نتيجة سباحة ضد تيار نظام مهـيمن عتيد كالميري المصري، فإن القصة تكون ملكا للمجتمع بأسـرد، ومن هذه الزاوية أسمح لنفس بروايتها، داعيـا المـولى أن يجـد القارئ الكريم فيها عوضا مكافئا لصفقة اقتناء هذا الكتاب.

فصل تمهيدي:

شاهد على عهدين

ليس كبناء الهرم الأكبر معجزة تشهد بعراقة الميري المصري.

فأن يُقطع حجر يصل طنين في وزنه بالحجم والمقياس المضبوطين، لينقل قرابة ألف كيلومتر فيصل في التوقيت المضبوط، ليوضع وقت وصوله في المكان المضبوط، لهو أكبر دليل على ما كان فيه هذا النظام من انضباط في عصر يعود لأربعين قرنا مضت، ويشهد بوضع **"الرجل المناسب في المكان المناسب"**.

ويشهد التاريخ بأن تقديس الوظيفة العامة تراث مصري أصيل، يدل على ذلك وثيقة تسمى "ذم المهن Satire des Métiers"، تعود للدولة الفرعونية القديمة، ينصح الأب الحكيم فيها ابنه بالالتحاق بالميري، مبينا ما في كل حرفة يدوية من مساوئ. ولعل هذه الوثيقة تكون أحد المصادر المعنوية للقول المأثور عن أجدادنا بالتمرغ في تراب الميري لو فاتنا.

ولقد تمتعت عن نفسي بهذا الاحترام المبالغ فيه للميري ورجاله منذ الطفولة الغضة، فقد كان الوالد "أفنديا" يعمل بالتدريس في المدارس الأولية. ورغم أنه كان يشغل أدنى السلم الميري فلم يمنع ذلك من أن يحاط مع أفراد أسرته بتقدير واحترام خاصين.

ثم كان أن قدر لي أن أصعد سلم الميري من أدنى درجاته أيضا

بالنسبة لأقراني، لتدوم بيننا عشرة تزيد عن خمسة وثلاثين عاما، شهدت فيها تطور هذا النظام العريق من النقيض إلى النقيض. بدأت وما زال عبق التاريخ لاحقا به، ثم أخذت أراقب هذا العبق يتبخر يوما بعد يوم، إلى أن اضطررت لفسخ عرى تلك العشرة بعد أن أصبح في حالة لا تخفى على أحد.

لقد تسلل إلى نخاع هذا النظام العريق مفاهيم ومبادئ ابتدعت لمواكبة ما جرى في البلاد من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية، فالميري في مصر وفي كل مكان ما هو إلا مرآة تعكس مثل هذه التطورات.

من هذه المفاهيم مثلا المبدأ المستحدث في اختيار كبار شخصيات النظام الميري: "أهل الثقة قبل أهل الخبرة"، وقد عبر الظرفاء في مصر عن هذا التحول بإعادة قراءة المبدأ القائل "الرجل المناسب (بضم الميم) في المكان المناسب" إلى "الرجل المناسب (بكسر الميم) في المكان المناسب" .

فإذا علمنا أن أهل الخبرة بطبيعتهم يعملون تحت إحساس بأمانة خبرتهم، فإن استبعادهم لحساب من لا يهمه إلا أن يكون أهلا لثقة أصحاب السلطة يكون ذا دلالة ليست هينة في قصة تطور الميري إلى أن صار كما نعرفه اليوم.

مرة أخرى، سبحان مغير الأحوال.

الرواية

في منطقة كانت آنذاك من المناطق النائية بمدينة الإسكندرية- تقع حاليا في ملتقى الطريقين الزراعي والصحراوي- بدأت أول خطوات دخولي لصرح الميري العتيد. ففي هذا المدخل المزدوج توجد حاليا مدرسة فنية متطورة، كان إنشاؤها في العام التاسع من عمر الحركة المباركة، وهو المصطلح الذي أطلق على تقلد الضباط الأحرار مقاليد الأمور في البلاد. وفي العام التالي كان استلامي للعمل بها مدرسا للاسلكي، بهذا قضى قرار التكليف.

وقد كان للثوار قاموسهم الخاص للمفاهيم الوطنية والقضايا القومية، من مفرداته فيما يخص قصتنا أن حلم مهندس بعد تخرجه في عمل معين هو أمر يناهض هذه المفاهيم ويضاد تلك القضايا، حتى ولو كان الحلم من التواضع بأن يعمل في مجال تخصصه، أو حتى أقل تواضعا بألا يعمل فيما لم يؤهل له - ناهيك عن الاستعداد النفسي له، فهذا ترف لم يتح للمواطن المصري بعد - كمهنة التدريس، هذه المهنة المقدسة نظريا، المهيضة الجناح عمليا.

وكانت أقدار المهندسين عند تخرجهم موكولة بجهاز تابع للجهاز المركزي للتخطيط والمتابعة، يسمى "جهاز تكليف

المهندسين". ولم يكن حظ عمل هذا الجهاز من لفظ "التخطيط"، إلا بقدر ما تفرضه ظاهرة "معكوسية الأسماء"، وهي ظاهرة بشرية عامة بموجبها يسمى قصير الطول "نخلة" وتسمى حاسرة الجمال "وردة"، وتطلق دولة على نفسها "الدولة الاشتراكية الديموقراطية .. الخ" بينما حال شعبها لا يعلمه إلا الله.

كان التندر من مفارقات هذا الجهاز في عملية توزيعه العشوائية للمهندسين قاسما مشتركا في مجالسنا نحن حديثي التخرج من المهندسين، تندرا يدفعنا للضحك الذي يصاحب عادة شر البلايا، والذي وصفة أحد الشعراء بأنه "كالطير يرقص مذبوحا من الألم". لا تزال ذاكرتي تعي مجلسا كان زميلا لنا فيه يجأر بالشكوى من جزاء موقع عليه بعشرة أيام كاملة، لتجرئه بالاعتراض على توزيعه على وزارة التموين بعد تخرجه كمهندس إلكترونيات. وبعد أن قرأت اسمه كأحد كبار المسئولين في هذه الوزارة بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاما علمت أن هذا الجزاء الرادع قد أتى ثماره من تعليم موظف بالدولة قواعد الطاعة الوظيفية. (تعقيب له دلالته: يطلق على الجزاءات الإدارية في بلادنا "تأديب الموظفين"، بينما تسمى في غيرها من البلدان "القواعد الانضباطية disciplinary rules").

وفي مجلس آخر مررت بحادثة طريفة، كان المتحدث فيها يناشد من يستطيع مساعدته في استنفار وزارة التربية والتعليم أن ترفع عليه دعوى "استرداد". وملخص القصة أنه كان يعمل في هذه الوزارة "مدربا عمليا" بشهادة متوسطة، واستطاع بطريقة ما الحصول على منحة دراسية بكلية الهندسة، فحدثته نفسه الأمارة بالسوء أن يتخصص فيما لا يدرس في المدارس الصناعية، فاختار

الهندسة المدنية. وحين آن أوان الاكتواء بقرار التكليف كان لسان حاله يقول "يا ناكر خيري بكرة تعرف زماني من زمن غيري".

أما زميلتي في التكليف بالمهنة المقدسة فقد كان حالها وقت استلامها للعمل يصعب على الكافرين، (وهم بحمد الله غير كثيرين في بلد الأزهر والكذا ألف ألف مئذنة). لقد كلفت هذه المسكينة المنهارة للتدريس في مدرسة صناعية للبنات، وتخصصها هندسة كهربية، ولم يكن لهذا التخصص وجود في مدارس البنات، ولكن أنى للجهاز الأصم الأعمى أن يدرك أمرا كهذا؟

وقد جرى أبلغ تعبير صادق عن فلسفة هذا النظام على لسان أحد رؤساء المصالح، حين حسم الجدل مع مجموعة من المهندسين وزعوا على مصلحته حول توافق تخصصاتهم مع طبيعة العمل في مصلحته بالقول:

- "تخصص إيه يابني انت وهوه؟ دا احنا واخدينكم بالراس!" (سنلتقي بقول مأثور آخر له في قصة "دبانة نجع حمادي"، وبالمناسبة كان أحد المعترضين زميلا خريج أول دفعة لقسم الهندسة النووية بالإسكندرية، وبدلا من أن يتحقق حلمه بالعمل مرتديا الروب الأبيض الشهير وسط زملائه في إنشاص حيث المفاعل الذري، كما وعدته الدولة حين أنشأت القسم وأنفقت عليه ما أنفقت، وجد نفسه مكلفا بالعمل في تركيب أبراج كهرباء مشروع السد العالي).

ولم يفت الدولة أن تحيط النظام بما يكفل له احترامه، فكان عدم تنفيذ قرار التكليف جريمة جنائية يستحق صاحبها عقوبة غرامة مقدارها خمسون جنيها (يقابل سعر ما يقرب من مائة جرام من

الذهب بأسعار ذاك العصر)، وعند العود تشدد العقوبة إلى الحبس لستة أشهر، ولا أعتقد أن الدولة كانت محتاجة لردع أكبر، فتكرار الجناية بعد ذلك أمر غير محتمل. ويحكم بنفس العقوبة على كل صاحب عمل يشغل لديه مهندسا دون خلو طرف من التكليف.

بهذه الفلسفة كان مقدرا لبلادنا أن تدخل عصر النهضة الصناعية التي ستدفع بها إلى مصاف الدول العظمى، لتصنع من الإبرة للصاروخ تمردا على حرفة الزراعة التي وصمها بها الاستعمار (كما كان يردد رئيس الدولة آن ذاك)، وليكون لها على شط كل ترعة تماثيل رخام وأوبرا، كما أفرزت قريحة صلاح جاهين وتغنى العندليب الأسمر رحمهما الله.

*****

ولم نكن قد سمعنا قبل عام تخرجي عن أن صديقنا اللدود قد قرر أن يدفع بخريجي كلية الهندسة لمهنة التدريس. وكان قرارا بذلك قد أصبح ينظر إليه كقرار إعدام مهني، فكنا من بين ضحايا التكليف الأكثر حظوة في الإشفاق، ولذا لم يترك المكلفون به طريقا مشروعا أو غير مشروع للتمرد عليه إلا اتخذوه، خاصة وأن جهاز تخطيطنا القومي لم يشأ إلا أن يزيد الطين بلة بأن يجعل لمقابل من يكلف للعمل في هذه المهنة أدنى دخل بين قرنائه (تعبيرا عن النظرة التقليدية للمهنة)، أما مردود ذلك على العملية التعليمية وصالح الطلبة فمشاكل تنفيذية لا تشغل بال مخططي المصالح القومية العليا للبلاد.

على أنني خلافا لزملائي لم أجد في هذا القرار شرا محضا،

لأسباب ثلاثة. السبب الأول عائلي، فقد كان الوالد معـارا للعمـل بدولة عربية، وكنت مسئولا كابن أكبر عن الأسرة. السبب الثـاني عملي، فتطبيقا لفلسفتي في النظر للنصف الممتلئ مـن الكـوب، وجدت في فترة التكليف (كان مقدرا أن تكون لعامين) حلا لقضية شغلت بالي طوال فترة الدراسة الجامعية. كيف سـأواجه الحيـاة العملية بهذا الكم من الدراسات الأكاديمية المنبتـة الصـلة تمامـا بالواقع العملي؟ (من نافلة القول أن نـذكر أن اشـتراط التـدريب الصيفي لعامين خلال مدة الدراسة ليس إلا إجراء شكليا لا يسـمن ولا يغني من جوع في ربط المهندس بالحياة العمليـة). مـن هـذه الزاوية رأيت في فترة التكليف مرحلة "انتقال هادئ"، يمكن للمـرء خلالها الاطلاع على الحياة العملية، مع التثبت في نفس الوقت مـن الأسس النظرية، وليس كالتدريس فرصة لذلك. وهكذا سار الأمـر بالفعل.

أما السبب الثالث فشخصي، يتمثل في عشقي لعملية التـدريس عشقا ملك روحي طوال الحياة الوظيفية، ولا يزال، فلم يكن لـدي مانع من التمتع بهذه الهواية لفترة ما قبل الانخـراط فـي الحيـاة الهندسية. بل إنني في واقع الأمر لم يكن لدي مانع من امتهانهـا، فهممت بالفعل أن أقدم أوراقي للوزارة، ولكن أنين الزملاء المتصل من سوء أحوالهم أجبرني على التراجع. وقد لمست بعد عشـرين عاما كيف كان هذا التراجع صائبا، حين قدر لي أن أزور المدرسة التي كلفت للعمل بها وأنا في منصب مدير عام، والزملاء قد وصل المحظوظ منهم إلى منصب رئيس القسم.

*****

توجهت يوم استلام العمل لمكتب السيد الناظر، وكان في الدور الأول في نهاية طرقة طويلة، كما تقتضي الهيبة الإدارية. وكـــان سيادته يمثل هذه الهيبة بكل أبعادها، ولكن من الجانـــب المشـــرق فيها، بعد عن المركزية، وتأن فـــي القـــرارات. كانـــت حركاتـــه محسوبة، وكلماته منتقاة بعناية، يتخللها الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة الموافقة للمقام بما يدل علـــى حس راق بالبلاغة. فحين خسر انتخابات لجنة العشرين أمام بعض صغار العاملين في المدرسة (وهو أمر كان يثلج صدور القـــائمين على النظام السياسي طبقا لمفاهيمهم الوطنية)، كان تصرفه يـــدل على العظمة الكامنة في نفس العزيز إذا ذل، بكـــل هـــدوء نفـــس سمعته يعلق مستشهدا بحديث رواه عن الرسول الكريم ﷺ: "نصف أهل الأرض أعداء لكل ذي رئاسة، هذا إن عدل".

كان لقائي به لاستلام العمل طريفا، إذ بدا ترحيبه بي مفرطـــا بعض الشيء، ما لبث أن تلاه شيء مـــن الإحبـــاط حـــين علـــم بشخصي. ودلني ذلك على أن هذا القدر الزائد من الترحيب وجـــه إلي عن طريق الخطأ. أخذ بسماعة الهاتف وطلب مدير المنطقـــة التعليمية ليستشهد بالبيت التالي:

تكـــاثرت الظبـــاء علـــى خـــراش

فـــلا يـــدري خـــراش مـــا يصـــيد

فهمت بعد قليل أنه كان متوقعا مهندسا آخر سميا لي، ولكن في تخصص الميكانيكا حيث العجز في المدرسين، بينما لديه فائض في تخصص اللاسلكي لحداثة عهده وقلة طلبته. على أن وصول هـــذا الزميل بعد أيام لم يخفف من الأمر شيئا، فقد كان عازما ألا يرضخ

لقرار همايوني بإخراجه عما تأهل للقيام به من عمل، فدخل مع المدرسة والمنطقة التعليمية في صراع لا أدري كيف انتهى.

وبعد أسبوع بالضبط وصل للمدرسة زميل من دفعتي، كان تكليفه للعمل في المدرسة ليس كمدرس ولكن كمهندس للكهرباء، على أساس ما في المدرسة من ورش ميكانيكية. وقد بين القدر أن تكليفه في هذه المدرسة كان ضربة حظ سعيد لي، فقد كان يتمتع بشهامة وصدق أخوة أدامت العشرة الطيبة بيننا إلى يومنا هذا. وبعد ردح من الزمن عبرت عن هذه العلاقة بالأبيات الآتية من الشعر تهنئة بتجديد منصبه كرئيس مجلس إدارة إحدى الشركات (وكنت وقتها لا أزال متعثرا في درجة المدير العام):

لكل عصر رجال يزدهي بهمو

وقد زها عصرنا على الدنيا بـ "ميقاتي"

أبان فضل له عن طيب منبته

به استحق مديحي في كل أوقاتي

دبجت شعري أبياتا تشيد به

لكن سجاياه فاقت كل أبياتي

هذا الزميل من عائلة تسمى "الميقاتي" بإحدى مدن الدلتا، أما الفضل المشار إليه فسوف نعرض له في حينه.

ولم يقتصر عملي بعد قليل على هذه المدرسة، فسرعان ما ندبت للعمل بالمدرسة الثانوية الفنية للبنات بمنطقة رشدي، وكانت تحت رئاسة ناظرة تمثل من الاعتداد بالنفس والجدارة الإدارية ما

يماثل ناظر مدرسة البنين. (في هذه المدرسة عينت الزميلة سيئة الحظ التي ذكرتها آنفا، وكان ذلك قبيل تركي لمهنة التدريس بأيام قلائل، فلم يتح لي أن أقدم لها أي عون في محنتها).

ثم كان الندب لمدرستين أخريين، واحدة إعدادية فنية للبنين، والأخرى إعدادية فنية للبنات. وكان نظام الإعدادية الفنية قائما لفترة ثم ألغي، فكان عملي به في آخر عامين له. ومن أحلى ذكريات هذه الفترة منظر طفلة في عمر الزهور لا تزيد كثيرا عن مسطرة الحرف T التي بجوارها ، وهي تحدق بعينين حلوتين ملؤهما الاندهاش والاستغراب لمدرسها وهو يحاول أن يشرح لها كيفية مرور الإلكترونات في الصمام الكهربي وما يصاحب ذلك من ظواهر.

هذا عن العمل النهاري، أما بالنسبة للعمل بعد الظهر فقد كان الندب في برنامج دراسي هو أحد تناقضات هذه الفترة من عمر بلادنا. البرنامج مصمم على أساس سنة تمهيدية في مدرستنا، ثم يكمل البرنامج لثلاث سنوات في ألمانيا الاتحادية. وفي عام التحاقي بالمدرسة كانت الاتفاقية قد ألغيت من جانب ألمانيا، بينما الدولة لم تضع حلا بديلا لأبنائها الطلاب الملتحقين بالبرنامج. وأصبح مطلوبا منا أن نقوم بالتدريس هذا العام لطلاب عازفين عن الانخراط فيما لا جدوى وراءه. لم تزد الدراسة في هذا العام عن تهريج كما ينبغي للتهريج أن يكون. وكان القدرُ الذي أتيح لي من تلمس الحلال للدخل الذي كنت أتقاضاه هو بإقناع طلابي بأن الاستماع بما لدي هو لفائدتهم الشخصية في حياتهم العملية.

*****

علمنا أساتذة اللغة العربية الأجلاء أن المتناقضات تزيد المعنى جمالا، ولا ينطبق هذا بأي حال على حالة ناظر المدرسة الذي تحدثت عنه ونقيضه الذي حل محله في العام التالي من عملي بالتدريس بعد خروج الأول إلى المعاش. ولست أدرى داعيا أن أعدد مناقب الناظر الجديد، فالنقيض يعرف بنقيضه. على أنني حين أرنو بنظري راجعا لهذه الفترة بعد هذا العمر الطويل من العشرة مع الميري ورجاله المرموقين أرى أنني كنت متحاملا على الرجل، فالواقع أن الناظر الأول، مع ناظرة المدرسة التي انتدبت للعمل بها كانا رحيقا من عبق عصر مضى – شاء المولى الكريم أن أنعم بأريجه قبل الرحلة المضنية المقدرة لي.

ويحمل قرار اليوم الأول للناظر الجديد دلالات عميقة على التناقض الذي نوهت عنه؛ لقد كان قرارا بتبادل غرفته في الدور العلوي مع غرفة وكيل المدرسة في الدور الأرضي، حيث الغرفة الثانية مطلة على بوابة المدرسة، حيث يمكنه أن يطلع على الطلاب والمدرسين في دخولهم وخروجهم، فكان بذلك أقرب إلى غفير منه إلى مدير. وأعمق ما في هذا القرار من دلالات أنه يمثل روحا إدارية أصبحت من أكبر شواهد حياتنا الوظيفية اليوم.

ويكفي قراران آخران لبيان طبيعة هذا الرئيس الإداري الجديد. كان الأول أمرا إداريا بتغيير نظام العمل بالمدرسة، بحذف الفسحة الكبيرة التي بين الحصة السادسة والحصتين السابعة والثامنة. وكإجراء نمطي في حياتنا الإدارية فإن القرار يخرج مفاجئا للجميع، ويصم متخذه الآذان عن كل ما فيه من عدم منطق، وهو صمم يبدو أنه يعتبر في بلادنا من مظاهر السلطة الإدارية. فبالفعل حاول كل

مسئولي المدرسة إقناع ما لهذا القرار من أثر تدميري على العمليـــة التعليمية في المدرسة، بل لست أدري هل كان هذا من حقه وظيفيـــا أم لا. الذي أدريه أن إلغاء القرار جاء من جهة لم يعمل لها ســـيادته حسابا، وهو إضراب الطلاب عن دخول المدرسة حتى يلغى القرار، حيث لا يعقل إنسان أن يكلف طالب في مدرسة صناعية تقوم أكثـــر ساعات العمل فيها على التدريب العملي المرهق دون هذه الفترة من الراحة. وكانت هذه المعركة فاتحة خير لعهده الرئاسي.

المهم أنني لا أنسى مسلك الرجل في مراحل القصـــة الـــثلاث، وهو يصدر القرار ويصم أذنيه عن اعتراضات مسئولي المدرسة، ثم وهو يقف مكابرا ضد ثورة الطلبة ويعلن أنـــه مســـيطر علـــى الموقف، ثم وهو يرضخ ويتراجع، في كل هذه المراحل كان قابعا في برجه العاجي مبتسما في حالة عجيبة من الرضا عن النفس.

القرار الثالث من نفس طبيعة القرار السابق، والتي أطلق على مثلها من قرارات اسم: قرارات "يا قاعدين يكفيكوا شر الجـــايين". فهذه القرارات تتميز بأنها لا تفعل أكثر من إثارة الاضطراب فـــي العمل الإداري، فهي لا تواجه مشكلة قائمة، ولا تؤدي إلى نتيجـــة معينة، وكأن المقصود به هو مجـــرد إثـــارة هـــذا الاضـــطراب. فالقاعدون هنا تشبيه للعمل الإداري بالرجل الذي يسير في حالـــه، فيفاجأ على غير توقع بمن يعكنن عليه دون ذنب أو جريرة.

كان القرار عجيبا في مضمونه، غريبا في دوافعه. إنه يتعلـــق بأشهر حق يعرفه الموظفون ولا يترددون فـــي اســـتخدامه حتـــى الثمالة، ما يعرف باسم الإجازة العارضة، وهي كما يعلم الكثيرون لسبعة أيام في العام. صحيح أن القانون قد جعـــل هـــذه الإجـــازة

مواجهة لما قد يحدث للموظف من ظروف طارئة، وصحيح أن موظفي الدولة درجوا على استنفاذها دون تمسك بهذا الشرط، ولكن القانون لم يشترط لا ذكر الموقف الطارئ ولا دليلا عليه، تاركا ذلك لذمة الموظف. هنا رأى الناظر الجديد لنفسه دورا تصحيحيا لقصور المشرع، وهو أن يلزم كل موظف بتقديم المبرر الذي دفعه للانقطاع عن العمل.

حين جاء الدور على العبد لله لتطبيق القرار، كانت مواجهة أصبحت بعد ذلك نمطية في حياتي الوظيفية، تتمثل في زرجنة أصبحت من صور النقائص التي تحسب علي في حياتي الوظيفية. رفضت أن أفعل إلا ما يتطلبه مني القانون (لم أكن قد درست القانون بعد)، على أساس أن الأمر يتعلق بحياة الموظف الخاصة وما بها من أسرار لم يلزم القانون الموظف بالكشف عنها. وحين أصر سيادة الناظر، وأمام عيون مترقبة نتيجة المواجهة، صحت قائلا:

- يعني عايزني أكتب لك إن ....

واخترت سببا محرجا للغاية عن خلاف عائلي.

وانتفض الرجل من المفاجأة، فقال دون وعي:

- ما قلتش كدة، اكتب أي حاجة ثانية.

وفي هذه اللحظة أصبح في وضع لا يستطيع الدفاع فيه عن قراره، لأنه يعني أن القانون يطلب من الموظفين أن يكونوا كذابين، وإذا كان الأمر كذلك فيمكن لسيادته أن يحيلني للتحقيق بهذه التهمة. هذا ما واجهته به، وبه قضي على هذا القرار الهمايوني.

وخارج الغرفة عبر البعض من الزملاء المغرقين في الضحك على الموقف، والمنتشين لنتيجته، " ينصر دينك" (جملة سمعتها

كثيرا بعد ذلك).

(ملحوظة لست أدري إن كان لها دلالة ما في الموضوع الـذي نحن بصدده؛ كان الرجل يصر على الرد بعبارة "صـباح الخيـر" بجملة: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".)

*****

كانت فترة مباركة بكل المعايير، تمتعت فيها بالتواصل الإنساني - وهو العطاء الأول في هذه المهنة المقدسة - بكل ما يعنيه اللفظ. وبعدها سار القدر بالمرء في طريق آخر.

التقرير

نص قرار التكليف أنه لعامين، فقلنا أمر هين. ثم بشرنا بأنه قد أصبح كالزواج الكاثوليكي، ليس منه فكاك. لقد تعدل القانون ليكون القرار قابلا للتجديد من قبل الجهة الإدارية، وطالما رأت ضرورة لذلك. ومن الوجهة العملية فإن قرار الاستغناء عن مهندس مكلف لدى جهة ما مسئولية إدارية ليس من الحكمة تحملها. ولا تسل عن وقع هذا القول على النفس بعد نهاية فترة التكليف، خاصة وأنين الغلابة من زملائي المدرسين لا يزال يطن في الأذنين، يهيب بي إلى تلمس وسيلة للفكاك.

ويقول المنطق إن الطريق من الوجهة القانونية منغلق تماما. ولكن من قال إن المكاسب المصيرية تأتي بالضرورة من تفكير منطقي؟

بتأثير من حماس الشباب أو من طيشه، قررت عدم الرضوخ لهذا الموقف الظالم من الدولة، فانقطعت عن العمل في اليوم التالي مباشرة لانتهاء التكليف، معرضا نفسي بذلك لمواجهة لم أعمل لها حسابا.

للمرحوم بيرم التونسي موقف مشابه أثناء فترة نفيه، وذلك عند مرور السفينة التي كانت تعبر به قناة السويس من سوريا متجهة لفرنسا، حين تسلل إلى الأراضي المصرية رغما عن سلطاتها. وقد

عبر عن ذلك قائلا:

هتـــف بي هـــاتف وقـــاللي
انـــزل ومـــن غـــير عزومـــة
انـــزل دي ســـاعة تجلـــي
فيهـــا الشـــياطين في نومـــة
انـــزل دا ربـــك تملـــي
فوقـــك وفـــوق الحكومـــة

بشعور ما أحسست أن الله سيكون فوقي وفوق الحكومة، وبينت الأقدار أن شعوري برحمة المولى كان صادقا كما كـان بالنسـبة للمرحوم بيرم.

هتف الهاتف بي أنه طالما أن المسـألة فـي أساسـها مسـألة شعارات، فليكن اللجوء إلى ما هو أكثـر دويـا فـي الشـعارات المحاطة به. ولعل القارئ قد تنبأ بما أعني، نعم، ليس غير مشروع السد العالي أملا في النجاة.

كلام منطقي، شريطة أن توجد الوسيلة لتحقيقه. فبهذا التحليـل كنت قد عثرت على الجرس، وبقيت خطوة تعليقه في رقبة القـط. وهنا بالذات، تحقق أملي كما تحقق لبيرم من قبلـي فـي وقـوف المولى سبحانه بجوار عباده المظلومين.

*****

شددت الرحال إلى أسوان لست أعلم بها سوى صديق لصـديق لي، يعمل في شركة المقاولون العرب. وحقق رحمـة الله عليـه

الأمل الذي كان معقودا عليه في حسن الاستقبال وكرم الضـــيافة، ووعدني بأن يقدمني بعد أن أنال قسطا من الراحـــة إلـــى رئـــيس الإدارة الهندسية، رجل فاضل من أهل النوبة كرام المحتد. ولكـــن الله قدر أمرا آخر.

حين توجهنا للمكتب المنشود، وتقدم زميلي ليفسح لي المجـــال، رأيته يكر مهرولا كمن رأى شبحا، والواقع أنه كان قد رأى المدير العام للمشروع جالسا في مكتب الرجل المقصود. وحـــين رآنـــي أتأهب للدخول عليه هاله أخذي للأمر بتلك البساطة، ولكنه تركني على أية حال أواجه مصير هذه الجرأة، دون أن يدري بأن اليـــأس إحدى الراحتين، يعطي النفس أحيانا ما يمكن أن ينظر إليه على أنه شجاعة ليست مألوفة.

للمرة الثالثة أواجه شخصا ممن أعتبرهم مـــن عبـــق التـــاريخ الماضي، مد لي يدا لا أنساها مدى الحياة. دخلت عليـــه فشـــعرت بالعظمة بأجلى معانيها، نظرة صارمة تليق بلواء سابق بـــالجيش، تزيدها رهبة عين زجاجية، يجلس مادا إحدى رجليه على كرســـي أمامه، ولا أدري إذا ما كان لذلك مدلول عســـكري، فقـــد رأيتهـــا لنابليون في فيلم الحرب والسلام.

دخلت على الرجل مبتسما، واقتربت منه محييـــا، فـــرد التحيـــة بصرامة سائلا عن مقصدي، فأجبته أنني أود أن أعرض خـــدماتي على الشركة التي هو مديرها. وحين سألني عن عملي السابق، وعلم أنني كنت مكلفا بالتربية والتعليم، سأل بحدة تحمل نغمة سخرية من نظام يعرف – كما يعرف الجميع – فساده وعدم منطقه:

كنت بتدرس إيه، جغرافيا؟

أجبت ضاحكا بالنفي، عالما بأنه سؤال استنكاري، يعبر عن حالة الاستياء لهذا المسلك من جهاز التكليف، والتعاطف مع هذه الضحية له. وآن الأوان لأن أحظى بما يضمه هذا المحسن الكريم في نفسه من الإشفاق على أمثالي، إذ وجه لي جملة لا أنسى وقعها على نفسي ما حييت، وقع من قذف له طوق نجاة في بحر لجي يشرف فيه على الغرق:

فوت بكرة استلم الشغل.

ولم أصدق إذناي، فسألت في غباء ما الذي يقصد بذلك، فلم يزد عن تكرار الجملة نافذ الصبر.

وجرت الرياح بعد ذلك بكل ما تشتهي السفن. فالتعيين في شركة المقاولون العرب كان هو المستوى الأعلى لحظ العاملين في السد العالي. كان من المعلوم أن العمل في السد العالي يعطي مزايا لا تتاح للعاملين في أية بقعة أخرى بالوطن. ولكن تميزت شركة المقاولون العرب على غيرها من جهات أخرى تشاركها هذا العمل فيما تعطي من مزايا، متمثلة في أكبر الأجور، وأفضل المزايا التي تقدم للعاملين: وجبات ثلاث مجانية، وناد ترفيه، وبدل سفر من أسوان للقاهرة تصرف تلقائيا دون شرط الحصول على إجازة (إغراء للعاملين على توفيرها). باختصار خدمات لم تترك تقريبا سوى أمر واحد، أن يقدم لكل عامل لم يتزوج عروسا له، بهذا كنا نتندر.

كانت شركة المقاولون العرب مسئولة عن إنشاء السد ذاته، ويشترك معها في تنفيذ المشروع بأكمله هيئة السد العالي ممثلة للمالك، ومسئولة عن إنشاء محطة الكهرباء العملاقة (بمعايير تلك الحقبة)، وشركة مصر للأسمنت المسلح، وكانت مسئولة عن كافة

أعمال صب الخرسانات، وهي أعمال هائلة تشمل قواعد للتربينات وأكتاف للبوابات وستائر للسد ذاته تخترق التربة أسفله لحوالي 280 مترا وغير ذلك من أعمال.

(تعقيب حول تجربة عثمان: رحم الله عثمان أحمد عثمان، وجزاه خيرا عما عمل لوطنه. ولكن الذي يحز في النفس أن يذكر في كتابه "تجربتي" أنه الوحيد الذي قام ببناء السد العالي، ولم يكن حوله سوى مجموعة من الكسالى والعاطلين. إننا نعلم هذا المسلك من الفاشلين، فما باله يأتي ممن حقق من النجاح ما رفعه إلى أعلى درجات الشهرة والمجد؟ أهي لعنة السياسة التي يقال إنها لا أخلاق لها؟ وكما ترحمنا على الفقيد نترحم على من تصدى للرد عليه، المهندس الفقيد عبد العظيم أبو العطا، أحد أبطال مشروع السد العالي، والذي تولى وزارة الري في عهد الرئيس السادات، ثم توفي في أحد معتقلاته.)

*****

كان التوزيع في الورشة المركزية، وكانت مكدسة بأفضل ما أنتجه العصر من آلات ومعدات. وكان العمل الذي قدر لي أن أتقاضى عنه ما لم أحصل عليه إلى آخر عهد لي بالوظيفة يسيرا لدرجة لا يتصورها عقل في مشروع كالسد العالي. الآلات تدور كما قدر لها مصمموها، فإذا ما أصابها عطل ما، فطاقم الفنيين على مستوى الكفاءة لإزالة الأعطال. أما رئيس العمل فرجل واضح سعادته في حياته من جميل مظهره الذي يدل على أنه من أولاد العز، وحلاوة حديثه وقصصه التي لم يكن يمل من إمتاع جلسائه بها، والمفروض أنني من بينهم، منذ بدء يوم العمل إلى منتهاه.

عدنا إلى مشكلة تلمس الحلال في المرتب، ولم أقتنع بفتوى زميل لي بأن مجرد وجودنا هو تمثيل للسلطة الرئاسية بما يكفل انتظام العمل، وهذا في حد ذاته مقابل كاف للأجر. بالقطع هناك دور للمهندس أكبر من دور خيال المآتة.

كان من ضمن طاقم العمل خبير سوفيتي، لا أنسى مجلسه منزويا، يرد في غير حماس على مداعبات الفنيين، والتي تدور أغلبها حول الجنس والنكات الخارجة، أو على مناقشاتهم الدينية البيزنطية، وهم يحاولون بسذاجة أن يقنعوه بأفضليتهم كأصحاب دين سماوي – على ما هم فيه من تسيب – على أمثاله من الملحدين. كان جليا أنه يعاني من إحباط من نوع معين.

سألته ذات يوم عن وجود عمل خلاف التمتع بهذا الجو الهادئ، فأجاب بحرقة:

– رابوتا منوجا، نو فسيو ني خوتشش.

وتعني بلغتنا أن العمل كثير، ولكن الجميع لا يرغبون.

وحين سألته منفعلا عما يقصد بذلك، أخذ بيدي وطاف بي أرجاء الورشة مبينا ما أفسده طول الإهمال، واضح السعادة بأنه وجد أخيرا من يسمعه. كانت هذه الجولة هي أول درس حقيقي لي في الحياة العملية. وإذا كنت أذكر لهذا الخبير هذا الفضل، فإنني أذكره لكل من عملت معهم من الخبراء السوفيت، ممن كانوا لي ولغيري نعم الأساتذة في الحقل الهندسي. لقد أنبأ التعامل معهم عن نفسية فيها من البساطة والإخلاص ما يجعل ذكراهم لا تغيب، وفضلهم لا ينسى.

وتمخضت الجولة عن برنامج عاجل طموح، ما أن أقره رئـيس القسم حتى كان إشارة لروح دبت في العمل، وكان واضحا أن سعادة العاملين بالعمل الجاد أكبر من سعادتهم بما كانوا عليه من استرخاء.

وحل موعد عيد الفطر المبارك، ولم يكن لي أن أقضيه وسـط أسرتي لأول مرة في حياتي، فلم يكن قد حل بعد موعد إجـازتي ربع السنوية. وفي زلة لسان غير مقصودة داعبت زميلا لي وهو يستعد لقضاء العيد مع أسرته في أرمنت قائلا:

– يا بختك يا عم هتعيد مع الست الوالدة وتسيب زميلك المسـكين في حضن الجبل.

وإذا بسيل من الأيمان المغلظة تخيرني بين أن أسافر معه أو يبقـى معي. ولم يكن أمامي سوى الرضوخ لهذه الشهامة الصعيدية الأصيلة، وكان عيدا حفر بعمق في الجانب المبهج من حساب الذكريات.

وعند العودة من أجازة العيد مجددا النشاط لاستئناف المعمعـة التي بدأتها، كانت هناك مفاجأة في انتظاري.

*****

وجدت في انتظاري استدعاء إلى إدارة شئون الأفراد، وهنـاك بلغت بكل أدب بتقرير الكفاية الذي يقدم في فترة الاختبـار. كـان 48%، أي من الدقة بحيث تخلف بنقطتين اثنتـين عـن المعـدل المطلوب لاجتيازي فترة الاختبار واستمراري في العمل.

ولست اعتقد أن أحدا بهذه الأمة، من الوزير إلى الغفيـر كمـا يقولون، ينكر مضمون نظام التقارير الدورية عن الموظفين. فـإن أحسن الظن به فهو نظام شكلي لا يـنهض علـى أي اعتبـارات

موضوعية تضمن جدارته في التحكم في مصائر العباد، وإن أسيء الظن به فهو أحد أدوات التسلط الوظيفي وإرهاب المرؤوسين لاقتضاء واجب التزلف والخضوع دون قيد أو شرط.

لم يكن خافيا علي ما يقدم لمدير الورشة الميكانيكية من صنوف التودد، ولكن لحداثة عهدي بنظامنا الميري كنت أظن أنها تصرفات فردية، وليست طقوسا يقتضيها هذا النظام من كل من انضم تحت لوائه.

على العموم لقد كان هذا درسا شئت ألا أتعلمه طوال فترة خدمتي. لقد نظرت من وقتها لتقارير الكفاية كمسرحية هزلية ليس لدي لا الوقت ولا الدافع لمجرد التفكير فيها مهما كانت أهميتها وآثارها.

لهذا السبب سارت تقارير الكفاية في ملفي الوظيفي كالطقس المضطرب. تارة ترفعني إلى عنان السماء فينسب لي ما يخجل تواضعي، وتارة تجعلني في الدرك الأسفل بين موظفي الدولة. وليس معنى ذلك اختلاف معايير تقييم شخصي المتواضع، إذ قد يصدر التقرير والتقرير المضاد من نفس الشخص أو من نفس الجهة، وليس في هذا من بأس طالما أن الرؤساء الإداريين المرضي عنهم مطلقو اليد فيما يفعلون. فالتقرير الذي انتدبني لشغل وظيفة مدير عام لأكون من أصغر من شغل هذه الدرجة الوظيفية في الوزارة التي كنت أعمل بها، صدر من نفس الجهة التي وضعت التقارير لسحب الترقية وتخفيض الدرجة والتخطي الوظيفي لأعوام مما ترتب عليه أن أكون أعجز (أفعل تفضيل من عجوز) من شغل هذه الدرجة في الوزارة، كما سنتحدث عنه في حينه.

لم يكن هذا الموقف من تجاهل التقارير الإدارية كنظام متعفن قصرا على وضعي كمرؤوس، بل كنت مصرا عليه كرئيس، لقد آليت على نفسي ألا أعطي مرؤوسا أقل من درجة الامتياز، إلا في حالة ارتكاب أخطاء عمدية أو إهمال جسيم. وكثيرا ما كنت ألام عن موقفي هذا، وكان الجدل على الدوام تكرارا لمفاهيم عقيمة ليس لها من أرض الواقع نصيب. كان ردي على الدوام أنه طالما لم تعمم المعايير المنضبطة للتقييم، فلن أتحمل أن يظلم فرد تحت رئاستي بالنسبة لفرد آخر وضع تقريره على أسس لا يعلمها إلا الله. بل لم أتورع ذات مرة من أضرب مثلا بحالة رئيس الشركة التي كنت أعمل بها في أواخر سنوات الوظيفة، والذي كان الأمر يبدو وكأن الرضا السامي عنه مرتبط بما يسببه من مشاكل إدارية وبما يحققه من خسائر للشركة.

ولست بحاجة إلى شرح مشاعري وأنا أطالب بحزم أمتعتي وترك الموقع غير مأسوف علي، لأواجه المجهول مرة أخرى، مجللا بالفشل هذه المرة.

لم يكن أمامي إلا اللجوء لمن مد لي يد العون أول مرة، والغريب أنه لم يفاجأ بالأمر، فقد بدا عالما بأخلاقيات مرؤوسيه، فألغى التقرير وأصدر أمره بنقلي إلى قسم الكهرباء بالموقع، ترى ماذا بيدي أن أفعله لأجازيه عن كل هذه الأيادي، سوى أن أسأل له الله أن يجزيه عني خير الجزاء؟

*****

وتوجهت في اليوم التالي إلى مكان تجمع مهندسي قسم الكهرباء في الموقع لشرب شاي الصباح معا قبل توجه كل إلى عمله، وكان

المكان يطلق عليه "خيمة (س)"

و(س) هذا كان رئيس القسم الذي نقل منذ فترة، فصار غائبا بشخصه حاضرا بشخصيته من خلال ما يحاك عنه من قصص تخلط بين الحقيقة والمبالغة، وما ترك وراءه من آثار على العلاقات بين أفراد القسم.

كانت القصص تدور حول صرامته الإدارية، وكفاءته الباهرة، ومظاهر حياته البوهيمية. كما كانت تدور حول أسلوب تقييمه للعاملين. كانت لديه نظرة ثاقبة في تقييم المهندس من أول دقائق من لقائه، فيترتب على ذلك إما أن إسباغ الجدارة عليه فيرفع إلى عنان السماء، أو سحبها منه فيكون التحقير اللفظي والعملي، وكان في ذلك لا يعترف بأقدمية في العمل ولا أسبقية في التخرج، فترك القسم من بعده كهرم مقلوب، يعلوه مهندسون حديثو التخرج مرتفعو المرتبة، وفي أسفله من تولى منهم رئاسة القسم من بعده.

وهكذا ترك غيابه اضطرابا عنيفا في العلاقات بين الزملاء، فمن كان مضطهدا في عهده آلت إليه الرئاسة ليفرغ مع شلته كل شحنات الحقد كما يشاء، ضد الأقل رئاسيا ممن كانوا أولي حظوة، وهم في نفس الوقت الأفضل كفاءة.

ولم يكن هذا الوضع المضطرب ليرحب بضيف جديد، وهكذا وجدت نفسي كمن استجار من الرمضاء بالنار.

ولم يحل هذا الوضع المضطرب أن أنهل من كل ما يتيحه العمل من خبرة. وكان للقسم سياسة عدم ترك فرد الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلة، بل يتنقل بين فروع العمل المختلفة.

وسواء أكان الهدف من ذلك خيرا أو ضرا فقد أتاح لي أن أوسع من نطاق خبرتي التي كنت أعدها لخطوة أخطط لها.

*****

بالإضافة إلى عدم الأمان في الجو المضطرب الذي كتب علي معايشته، كان أمامي موقف آخر علي الاستعداد لمواجهته. بعد عام سينظر في تجديد العقد، والأوراق تتضمن تعهدا مني بتقديم خلو الطرف من جهة التكليف خلال أسبوعين. وإذا كان هذا التعهد لم يجد من يتابعه طوال هذا العام، فمن الطبيعي أن يكون عقبة في التجديذ. وكان شاقا على نفسي أن ألجأ مرة ثالثة لمن مد لي يديه مرتين. لقد فعل الرجل أكثر مما كنت أتمناه، وله مني عظيم الشكر والامتنان، وعلي أن أدبر أموري بعد ذلك.

وانتهزت فرصة إعلان لشركة مصر للبترول عن حاجتها لمهندسين، وتقدمت فاجتزت الامتحان بيسر طمأنني على وضعي في مهنتي. وما أن انتهى العام حتى حصلت على شهادة بالخبرة كانت مسوغا للتعيين في تلك الشركة. لقد حصلت أخيرا على صك بالفكاك من نير جهاز التكليف!

فماذا عن القضية التي رفعتها الدولة على شخصي المتمرد؟ لقد هيأ الله سبحانه من حرر لي خطابا بأن عملي في السد العالي لا يقل وطنية عن العمل في الجهة التي كلفت للعمل بها، وأشاد بأدائي بما يوحي بأن خسارة فقدي لهذا المشروع الوطني العظيم ستكون فادحة.

هكذا انتهت المعركة ضد جهاز الروليت الإداري. لقد انتصرت الشعارات على الشعارات، فكان الدواء بالتي كانت هي الداء.

وشددت الرحال إلى مدينة السويس، لتبدأ المرحلة الجديدة من مشواري مع الميري.

في الهو

لم يطب لي المقام في مدينة السويس، لأسباب متعلقة بوضع الشركة، إذ كانت لا تزال قريبة العهد بالتأميم، ومن ثم فالأوضاع فيها غير مستقرة. وفي الفترة ما بين اجتيازي للامتحان واستلامي العمل تغيرت أمور لم تكن لصالحي، منها على الأقل تخفيض المرتب المتفق عليه، وضياع أهم ميزة للغربة في هذه المدينة.

وقد جاء الفرج على يد الصديق الذي زاملني في المدرسة الصناعية، فعلم بما أعانيه، فكان الفضل الذي أشرت إليه في أبيات تهنئتي له. فبمعونة الله ومعونته من خلال شخصية مرموقة في وزارة السد العالي (نائب الوزير للشئون المالية والإدارية) له بها صلة وثيقة تم تعييني في جهاز إنشاء محطات وخطوط السد العالي. ومنذ هذه اللحظة انتهت فترة التخبط التي قدر لي أن أفتتح بها حياتي الوظيفية.

*****

في أعماق صعيد مصر الطيب تقبع قرية هادئة على بعد حوالي ثمانية كيلومترات من مدينة نجع حمادي، وعلى أطراف الصحراء الغربية، تسمى قرية "هِو"، وهي تسمية فرعونية الأصل، إذ تسمى

في خرائط التاريخ الفرعوني "هور" نسبة للإله الفرعوني الشهير حورس. وبالمناسبة فإن هذا الاسم يدخل كمقطع في تسميات العديد من المدن، أشهرها طبعا مدينة دمنهور، ونطقها الأصلي دم - إن - هور، وهي تعني "مدينة هور" ("دم" تعني مدينة، و"إن" هي أداة الإضافة مثل for باللغة الإنجليزية).

وفي عمق الصحراء الغربية لخمسة كيلومترات، ومثلها تقريبا من الجهة المقابلة جبل العقبة الذي يفصل بين مدينتي نجع حمادي وأرمنت، اختير موقع إقامة أول محطة محولات لاستقبال الطاقة الكهربية من السد العالي، وفي هذه المحطة كان إلحاقي للعمل (أنشئ فيما بعد مصنع الألومنيوم بالقرب منها).

ومن المعروف طبقا لتقاليدنا الميرية أن نقل موظف إلى مكان ما يعتمد بُعده عن الأماكن الحضارية على ضَعف ما لديه من واسطة، أو شدة ما حققه من إغضاب للرؤساء. ومحافظة قنا بالذات - والتي تتبعها مدينة نجع حمادي - لها شهرة عريضة في هذا الخصوص، ويحفظ التاريخ قصيدة للأديب الكبير حفني ناصف حين نقل إلى قنا مغضوبا عليه مطلعها:

قالوا قنا حر فقلت لهم

وهل تحيل الحر قِنّا[1]؟

أما في حالتي فالأمر يختلف. فلم تكن الواسطة التي بين يدي كما علم القارئ الكريم قليلة الشأن بالمرة، ولم يكن أن أتيحت لي بعد خلال فترة الإعداد التي استمرت لشهرين بالقاهرة فرصة

1- القن بكسر القاف هو العبد الرقيق.

لإغضاب الرؤساء. كان هذا التوزيع بفعل عمدي من قبلـــي، هـــو النكوص عن اللجوء عند التوزيع إلى من تولى تعييني (كما كـــان الاتفاق مع زميلي) ولبس ثوب أولاد الناس الغلابة المحرومين من كل من يهتم بأمرهم، أو بالمعنى الدارج (من ليس له ظهر).

السر في هذا المسلك من جانبي هو أن هذه المدينة النائية تكفل لـــي أكبر قدر من البعد عن الرئاسات العليا التي هي أكثر تواجدا في مواقع العمل التي تتمتع بتركيز الأضواء كالقاهرة والإسكندرية وأسوان.

والبعد عن الرئاسات طالما وجدت لذلك سبيلا هو منهج اعتنقته طوال حياتي الوظيفية، بناء على حديث سمعته عن رسول الله ﷺ يقول: "مجاور السلطان كراكب البحر، إن نجا من الغرق لن ينجو من الفرق" (الفرق هو الرعب الشديد). معنى ذلـــك أن المجـــاور لذوي السلطة يفتقد الأمان، وهو مطلب حياتي لدي أقدمه على مـــا يمكن أن يجنى من مثل هذا القرب، ويهون لدي كل ما يترتب علي متطلباته من أضرار.

*****

في هذا الموقع قضيت فترة ليست بالقصيرة من مشوار الميري، كانت فترة اكتساب خبرة في مجالات هندسية مستحدثة فتحها علينا مشروع السد العالي.

فبمناسبة إنشاء هذا المشروع كان إنشـــاء الشـــبكة الكهربيـــة الموحدة للدولة. ولكي يكون هذا التعبير واضحا نقول إن قبل هـــذا المشروع كانت التغذية بالطاقة الكهربية تتم فـــي نطـــاق منـــاطق منفصلة، كل منطقة مستقلة بمحطات توليدها وما يتفرع عنها مـــن

محولات وخطوط إلى أن تصل للمستهلكين فيها. ويعتبر هذا النظام غير كفء بالمرة، فالشبكة الموحدة تتيح تشغيلا أفضل لتوزيع الطاقة الكهربية في البلاد[1].

واقتضى تنفيذ مشروع الشبكة الموحدة الدخول في عصر عدد من التقنيات التي لم تكن معروفة في البلاد بعد. فأولا استلزم نظاما للتحكم في الشبكة، يتمثل فيما يعرف بمراكز التحكم، ويتكون النظام من مركز رئيسي اختير له أن يكون بالقرب من محطة توليد غرب القاهرة في محافظة الجيزة، يخدمه عدة مراكز تحكم إقليمية، كان أحدها في نجع حمادي يسيطر على الشبكة في منطقة الصعيد من محطة خزان أسوان إلى بني سويف.

وبالنسبة لي كمهندس إلكترونات واتصالات كان المشروع فاتحة خير بكل المعايير، فقد استلزم إنشاء مراكز التحكم تحميل الخطوط الكهربية ذات الضغط العالي بقنوات تسمى (الكارير)، وهي قنوات ذات تردد عال تحمل إشارات تعبر عن شدة التيار والضغط وغير ذلك من قياسات في النقاط الحساسة من الشبكة، وأوضاع ما بها من موصلات للتيار إلى تلك مراكز التحكم، كما تحمل قنوات اتصالات هاتفية بين كافة أطراف الشبكة، بما يغني عن اللجوء لخطوط الهاتف المعتادة، والتي لو اعتمد عليها في هذا المجال ما اشتغلت الشبكة الكهربية الموحدة ساعة واحدة. كما أمكن استخدام هذه القنوات في تطبيق نظم للوقاية لخطوط نقل التيار

1- بل إن التوحيد قد يتجاوز نطاق الدولة الواحدة، فدول أوربا مرتبطة بشبكة واحدة، كما تم مؤخرا ربط مصر بالأردن، وهي على وشك الربط بليبيا. وينتظر بعد تنفيذ مشروع سد زائير العالمي ربط أفريقيا بأوربا كهربيا.

هربي أسرع بمراحل من طرق الوقاية التقليدية.

وبالإضافة لإنشاء مركز التحكم الإقليمي بنجع حمادي وقنوات كارير وتطبيق تقنية الوقاية ذات التردد العالي كانت المسئولية تشمل أيضا إنشاء أبراج على طول مسار خط الضغط العالي تحمل قنوات للاتصالات ذات التردد فوق العالي (المعروفة باسم الميكروويف، وهي شبيهة بأبراج التلفزيون) لخدمة فرق صيانة الخطوط، ثم خدمة الاتصالات الداخلية في المحطات.

هذه كانت مسئولية مهندسي الاتصالات في محطات محولات السد العالي مثل محطة نجع حمادي 500 ك.ف. (اختصار لكيلو فولت) وهو الاسم الرسمي للمحطة التي عملت بها. وكنت أشغل مهندس أول الاتصالات فيها.

كانت فترة عطاء تشبع نفس شاب ممتلئ بالحيوية، نهم للمعرفة. فكان التنقل في أرجاء المنطقة الممتدة من سوهاج شمالا إلى أسوان جنوبا هي طبيعة العمل المعتادة لمدى ثلاث سنوات ونصف السنة، إلى أن انتهت أعمال التركيبات على أفضل ما يكون بفضل الله سبحانه، واستحققت عليها وسام الاستحقاق (كان في الواقع من الطبقة الخامسة، ولكنه وسام على أية حال) تقديرا لها.

ولما كان التوزيع في هذه المنطقة النائية ليس بالأمر السهل دائما، فقد ظللت المهندس الأوحد بها طوال تلك الفترة، وظل بالتالي مسمى المهندس الأول فارغ المعنى، فقد كنت المندس الأول والأخير في القسم، يتعاون معي فيها ثمانية من الخبراء السوفيت، بالإضافة إلى العاملين بالقسم من الفنيين والعمال. ولعل أن يكون

في هذه الحقيقة شيئ يشير إلى مدى الجهد الذي قدر لي أن أبذلـــه في هذه الفترة المباركة من خدمتي الوظيفية.

*****

اتضح لي عند وصولي المحطة أنني لم أكن الأول الذي بلغ من الذكاء اختيار هذه المنطقة النائية من البلاد للعمل. لقد سبقني فـــي هذا التفكير زميل آخر من المهندسين، كان قد استقر في المنطقـــة لحوالي عشر سنوات قبل وصولي إليها. ولكن اختياره الاســـتقرار في هذه المنطقة النائية كان على أسس منطقية مختلفة تماما.

فحين رأيت أنا في البعد عن الرئاسات في هذا المكان النـــائي توفيرا درجة من الأمان أنشدها، رأى فيه صاحبنا أنه يـــوفر لـــه درجة من الحرية في التصرف تجعله مطلق اليـــد فيمـــا يفعـــل. وبالفعل فقد وصل كل منا إلى غايته التي خطط لها تماما. فبالنسبة له ترك له الحبل على الغارب حتى أصبح شخصية شبه أسطورية تتمتع بسلطات شبه مطلقة لا حساب عليه ولا مراقبة، بـــل علـــى العكس، أصبح كالطفل المدلل يطلب فيجاب، حتى ولو كان الطلب متعلقا باضطهاد بريء أو البطش بمظلوم.

والطموح للسلطات المطلقة مسلك بشري لا أعتقد أنـــه ســـوف ينقطع إلى يوم الدين، لا ينجو من براثنـــه إلا اثنـــان، شـــخص لا يتصور نفسه إلا منحنيا لذي سطوة، وهذا يصـــنع مـــع صـــاحب السلطة ثنائيا متوافقا، وهؤلاء من الوفرة بحيث يندر أن يمر عليك يوم ولا تصادف منهم عشرات.

الصنف الآخر على النقيض، فهم من الندرة بحيث لا يحتمل أن تلتقي بأحد منهم إلا صدفة لا تتكرر إلا على فترات متباعدة. وحتى

لو التقيت بأحدهم فغالب الأمر لن تتبينه ما لم تحتك بـــه احتكاكـــا مباشرا، فليس لديه مظهر خارجي يميزه بين الناس. مثل هؤلاء قد أوتي من نفاذ البصيرة بحيث لا يرى فـــي الســـلطة المطلقـــة إلا انتحارا مقنعا، فإن سألته تبريرا، جاءك الرد فـــي أحـــد ســـياقات متعددة، بحسب طبيعة الرجل ونوعية ثقافته.

إن كان الرجل متدينا، ولا يشترط هنا أن يكون ذا حظ عال من تخصص ثقافي معين، ذكر لك الآية التي تبين أن السلطة المطلقـــة باب الطغيان "كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى"، ثم استشهد لك من الآيات والأحاديث النبوية ما يملأ نفسك رعبا حـــول مـــا توعده الله لأمثال هؤلاء من الطغاة.

وإن كان رجلنا من رجال القانون، ذكر لك المقولة الشائعة في القانون الدستوري، "السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة" (وفي رواية أخرى يستبدل كلمة "جنون" بكلمة "مفسدة")، ثم يدخلك في تحليل قانوني يثبت لك فيه أنه ما من أمة تحضـــرت إلا كـــان تحضرها مبنيا على ما يسمى "توازن السلطات" المبني على المبدأ الدستوري الخطير: "يجب أن توقف السلطة السلطة " Le pouvoir doit arrêter le pouvoir"[1].

وإن كانت ثقافة رجلنا تاريخية استشهد لك بالتاريخ الإنســـاني بأسره، وكيف كان مآل الطغاة على مر العصور، وما حـــل بهـــم وبقومهم من نكسات على أيديهم، هذا إذا لم يكن بإمكانك أنـــت أن تستخلص من تاريخنا المعاصر ما يؤيد ذلك.

1- من هنا ترى عزيزي القارئ أن عبارة "سيد قراره" هي من قبيـــل الكلمـــات الخبيثة التي ابتلينا بها في هذه المرحلة من تاريخ بلدنا الحبيب.

وإن كان من رجال المنطق والفلسفة، جادلك فـي أن المسـتبد رجل سعى بنفسه طواعية إلى الظلام بدل النور، وإلى العمى بدلا من الإبصار. ألا ترى أمثاله لا يحاط إلا بكل متملق مداهن، وأين في أمثال هؤلاء من يعطي نصيحة خالصة؟ وقد يذكرك تدليلا لذلك أن أحد عناصر النصر في موقعة بدر الكبرى كانت لتقبل الرسول الكريم مشورة لأحد أصحابه.

أما لو حدثتني أنا، فسوف أعرض لك الصورة التي تفزعني من فكرة الاستبداد. صورة لقائد سيارة انطلق بها بأقصى ما يتيحه له تصميم المحرك وسعة التنك، سعيد بأن خلع عن سيارته فراملهـا، لا يرفع عينيه عن المرآة لفرض نرجسيته[1]، غير واع لمصـيره المشئوم. صورة لا تثير إلا الرعب والرثاء.

*****

وكما قدمت، كان لصاحبنا ما أراد، وازدادت حصيلة الضحايا الذين جعل منهم سلما للصعود، والذين بدا الأمـر وكـأن أنيـنهم يشجي أصحاب السلطان من الرئاسات العليا في أبراجهم العاجيـة بعاصمة البلاد.

أما هو فقد أضحى مصدرا لقصـص لا تكـاد تنتهـي، منهـا التراجيدي ومنها الكوميدي، ومنها ما يثير في النفس الشجن لما به من عبرة، وسوف أنتخب من هذا التراث المهول قصة واحدة.

بعد سنوات عديدة من تفرق شملنا بعد طول صحبة، وترقيتـه إلى درجة وكيل وزارة، قابلت زميلا يعمل معه، فسألته عنه فأجاب

1- النرجسية هي عشق الذات.

بأنه قد تماثل للشفاء بعد الحادثة التي مرت به. ودهشت لذلك أيما دهشة، فالحادثة التي أعرفها مر عليها عدة سنوات، إذ كانت إثـر ترقيته مديرا عاما، حين انقلبت به سيارته المصلحية فقضى فـي الجبس قرابة العام، ظننا أن ما مر به خلاله قد استوفى ما قدمتـه يداه، ولكن اتضح أن دينا كان لا يزال باقيا يطلب الوفـاء، ذنـب الواد جاد.

وتتلخص القصة في أن مشادة حدثت بينه وبين بعض العمـال بالمحطة، تخللها شيء من التجمهر والتذمر، فما كان من صاحبنا إلا أن اتصل بالمركز مستغيثا بأن ثورة قد اندلعت في موقع محطة السد العالي. ولم تمض لحظات إلا وموقع العمل قد أحيط بقـوات الأمن الذين جمعوا العمال كما يجمع الفراخ في الأقفاص، وانطلق سيادته إثر هذا الموكب ليدلي بأقواله.

وحين عودته رأيته منتشيا بالصورة التي نعهدها حين ينجح في تدبير ما. لم يكن لمجرد ما حل بالعاملين المتذمرين من إجراءات معروفة في مثل هذه الأحوال، بل لأنه قد "طلع داهية" كما وصف نفسه.

السر في هذا الرضا غير العادي عن النفس يتمثل في أنه حين طلب منه أن يذكر اسم زعيم هذه الثورة ليكال له الصاع صاعين، رد بأنه "الواد جاد"، وهو آخر ما يتصور زعيما لثورة، فهو لم يكن يعي من الدنيا إلا ما يؤمر به فيطيع، أما في هذا الأمر فلم يكن له كما يقول المثل لا في الثور ولا في الطحين.

وفسر لنا صاحبنا نظريته في الدهاء الذي يفخر به. من جهة لو أقر باسم زعيم الثورة فسوف يستثير لديه حفيظة الثأر المعروفـة عند الصعايدة، ولذا فقد اختار الاسم الذي يطمئن أن ليس له حول

ولا قوة. ومن جهة أخرى فإنه حين ببطش بالبريء ويترك المذنب يكون قد دس في أوساط العاملين إسفينا يطمئن به ألا تقوم بيـــنهم رابطة بعد ذلك.

ومر على الحادث قرابة اثني عشر عاما، تصعد فيها صـــاحبنا إلى درجة وكيل الوزارة، وكان سائقه يقود به السيارة في طريـــق صلاح سالم، فواجهته مجموعة عائدة من عملية دفن، فأبى السائق إلا أن يلحق بالمتوفي واحدا من مشيعيه. عملها الرجل وفص ملح وذاب، تاركا رئيسه بين أيدي من شفوا فيه غليلهم.

وحين نقل للمستشفى بين الحياة والموت، كان لســانه لا يفتــأ يكرر كيف يضرب وهو البريء، بينما المذنب قد ولى الأدبار؟

لا أعتقد أن ذاكرته قد ربطت بين ما حل به وقتها ومــا حــل بالواد جاد الذي افتخر ذات يوم أن جعله يقول نفس العبارة، ففــي الغالب ليس من أصحاب الطغيان من له هذه البصيرة.

*****

على يد هذه الشخصية غير العادية كان التدريب الحقيقي علـــى الميري وواقعه، ولكنه تدريب بالذخيرة الحية، أفدت منه بصورة لم أكن أتصورها وقتها. وكانت أسلحتي المضادة له تتمثل في أموين: أولا؛ اختلاف التخصص، فمجـــالي التخصصـــي فـــي الاتصـــال والإلكترونيات لا يسمح لأي إنسان بالتدخل فيه، وهذا منفذ سُد عليه من ناحيتي.

أما المنفذ الثاني فكان اللغة الروسية، لقد كان يجيد منها ما يكفي أن يجعله بين الزملاء كالأعور وسط العميان، وأتاحت له هذه الميزة

التلاعب بالعلاقات بين الخبراء والزملاء، فطبيعة العمل تستدعي في كثير من الأحوال أن يترجم بين طرفين منهم، وهنا كانـــت أمانـــة الترجمة تعتمد على ما يضمره صاحبنا، ويكفي أن يعكر العلاقة بين الطرفين حتى يكون في ذلك وبالا على الضحية المسكينة. هذا منفذ آخر سد في وجهه من ناحيتي، فقد كانت إجادتي للغة الروسية تجعله لا يتجرأ أن يتحدث بالروسية في حضوري[1].

من جهة أخرى فإن إجادتك للغة قوم هي دعوة للصلة الروحيـــة مع أهلها، وهذا ما كان بيني وبين الخبراء، وقد كانت علاقتي الوثيقة بهم هي المدفعية الثقيلة التي أثبتت فعاليتها في أحلك المواقف.

من هذه المواقف مفاجأة نقلي من القسم مديرا لمحطة كهربـــاء مدينة مغاغة؛ إحدى مدن محافظة المنيا، وأول مدينة لها من جهة محافظة بني سويف. ولا يجب أن يشغل الإنسان باله في الحكمـــة من نقل إنسان منتج في عمله سعيد به إلـــى مكـــان يتنـــافى مـــع تخصصه (سبق أن استثنينا عنصر الاستعداد النفسي باعتباره ترفا على الإنسان المصري)، فالبحث عن تفاسير للوغارتمات الميـــري المصري وما يحمله من فانتازي إدارية ليس سوى إجهاد الـــذهن فيما لا طائل من ورائه.

على أن المأساة تبلغ ذروتها حين تعلـــم عزيـــزي القـــارئ أن المحطة الكهربية التي انتزعت من عملي الشرعي للعمل بها، كانت قد انتهت من التركيبات، ولم ينته بعد تنفيذ خطوط الكهرباء التـــي

1- من الجدير بالذكر أن أول نشاط لي في الترجمة كان في تلك الفتـــرة، حيـــث ترجمت كتابا من الروسية إلى الإنجليزية عن الاتصالات عالية التردد المحملة على خطوط الكهرباء ذات الضغط العالي (الكارير)

تربطها بالشبكة، فهي بالتالي أشبه بجسد ميت لم تدب الحياة فيه بعد. ولم يمنع ذلك السلطة الإدارية من تعيين الطاقم الكامل لها، ثلاثة من المهندسين وتسعة من الفنيين وثلاثة من العمال، وعلى رأسهم العبد لله في منصب المدير، متحملين أمام الله خسارة الوطن لمجهودنا ومرتباتنا.

أربعة أشهر قاتمة تمثل نكسة في مشواري الوظيفي شاءت الأقدار أن تتوافق مع النكسة التي حلت بالبلاد آنذاك عام 67. بطالة مقنعة تفرض على المرء وهو في أوج حماسه وذروة أنتاجيته، علاوة على تحمل عبء العاملين الذين لا عمل لهم، وليس أكثر من ذلك مدعاة للتسيب وسوء السلوك.

أمران قدحت فيهما الذهن لمواجهة هذا الموقف الشاذ، إيجاد عمل للمجموعة، ثم كيفية إقناع العاملين بالتحول إليه بديلا لهذه البطالة، وليس تحت اليد من سلطة مالية لتعويض ذلك.

أما العمل فقد هديت إليه بفضل الله، إن التلال من بواقي التركيبات تعتبر ثروة ضائعة لا يهتم بها أحد، تحتاج للحصر والتصنيف والتخزين على أسس سليمة، وهو عمل يمكن أن يستغرق شهورا طوالا.

أما المشكلة الحقيقية هو أن أجد دافعا يقنع الأفراد بالانتقال من حالة الاسترخاء إلى العمل الجاد، وكان الحل الذي توصلت إليه ينبئ بما وهبني الله من مقدرة قيادية مبكرة، فقد بينت للفنيين أن العملية لن تكون مجرد حصر مخزني ممل رتيب، بل صورة من مركز تدريب مصغر كلنا فيه طلاب وأساتذة، يتولى فيه كل فرد منا دور الأستاذ والطالب في نفس الوقت، أستاذ لما تخصص فيه، وطالب لما يشرحه الزملاء الآخرون من واقع تخصصاتهم.

لم أكن أدري وقتها أننا أطبق نظرية سوف يتاح لي دراستها بعد عدة سنوات في دبلوم العلوم الإدارية بكلية الحقوق، وضعها عالم يسمى "مازلو"، حيث رتب الحاجات الإنسانية في هرم يعرف باسمه (هرم مازلو)، وهذا الهرم ذو خمس مستويات، أدناها الحاجات البيولوجية، ثم تتدرج إلى الحاجة للانتماء، ثم للأمان، ثم للاحترام، وفي قمة الهرم الحاجة لتحقيق الذات، وهو الوتر الذي ضربت عليه تحفيزا للعاملين، وهل هناك أكثر تحقيقا للذات من أن يجد الفني نفسه أستاذا لمدير له؟

وبحمد الله وتوفيقه كان هذا الحل نجاحا لا أنسى حلاوته في واحد من أصعب الامتحانات التي امتحنت بها من صديقنا الميري.

أما مشكلة عودتي لعملي الشرعي الذي انتزعت منه قسرا فقد كان للخبراء السوفييت فيها دورهم المؤثر، والذين لم يتقبلوا أن يكون هذا العبث الميري على حساب مصلحة العمل، فوقفوا معي في معركتي للعودة لموقعي بكل ثقلهم حتى زال هذا الهم الثقيل بفضل الله وفضلهم.

بهذه الأسلحة المضادة تمكنت بفضل الله من جعل القسم الذي أرأسه أشبه بقلعة يصعب اختراقها، حتى شاع بين العاملين تسمية القسم تسمية فكاهية هي: "قاعدة هويلس"، وهو اسم قاعدة أمريكية كانت في دولة ليبيا أستردتها بعد الثورة. في هذه القلعة قضيت أحلى أيام العمر بين شهامة أهل الصعيد وإخلاص الخبراء السوفيت وحلاوة رؤية نتيجة الكد والمجهود.

وفي هذه الفترة أيضا تعرفت على الشخصية التي ذكرتها في الفصل السابق تحت الرمز "س". لقد شاء القدر أن نعين سويا في

جهاز الخطوط في يوم واحد. وحين تولى منصبا رئاسيا في هذا الجهاز كان علي أن أواجه امتحانه العصيب في تقييم من يعمل تحت رئاسته، وكان فضلا من المولى أن أجتاز الامتحان بدرجة نجاح أهلتني أن أكون أهلا لثقته وصداقته التي دامت طوال عملي بالجهاز.

وهكذا سار قدري بقية حياتي الوظيفية، ترتفع أسهمي عند قوم لتصل إلى عنان السماء، وتنخفض عند آخرين لتكون في أسفل سافلين. وليس من قبيل الصدفة أن يكون أفراد الصنف الأول ممن حملوا عبق التاريخ بكل قيمه وأصالته، وأن يكون أفراد الصنف الثاني من إفرازات نظامنا الميري بعد انتكاسته.

فانتازي إدارية

نتناول في الأسطر التالية من هذا الفصل بعض الشخصيات التي لعبت دورا في تلك المرحلة، وبعضا من المواقف والأحداث التي تكشف عن طبائع الميري المصري من خلالها.

مدير سوبرمان

الشخصية الأولى هي المدير العام الذي عين للمحطة، والذي سبقته إشاعة بأنه يحمل درجة الدكتوراه، فاستبشرنا بمقدمه خيرا. وكانت المفاجأة في أول اجتماع لنا به، إذ كشف الرجل عما يسميه علماء النفس "جنون العظمة"، فالمسكين يتصور نفسه أستاذا في كل فرع من فروع العلم التي فتح الله بها على البشر. حتى علم الاتصالات الذي هو تخصصي لم يسلم من سلطان علمه، فحين علم أن من اختصاصاتي تركيب قنوات الكارير صرح بأنه أول من درسه في مصر فور اختراعه في الخمسينات (طبعا كان اختراع الكارير قبل ذلك بعشرات السنين).

على أننا لمسنا بعد ذلك أن وراء هذه النعرة السوبرمانية يكمن قلب فلاح طيب، جعل العلاقة بيننا وبينه تحمل لمحة من أبوية استمتعنا بها جميعا، بقدر ما تضررنا من نزعته النرجسية.

وبالنسبة لي فقد انقسمت العلاقة بيننا إلى فترتين، الأولى من يوم وصوله إلى يوم رحيلي إلى المنفى بالمنيا. في هذه الفترة كانت العلاقة بيننا كأعظم ما يكون بين رئيس ومرؤوسه. فقد كانت حقيقة نقله مغضوبا عليه مدعاة لنا نحن صغار المهندسين إلى الالتفاف حوله، تعاطفا من جهة، ونكاية في الرئاسات العليا من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة لأنه بهذا الوضع لم نر في جنون عظمته شرا يخشى منه، بل مجرد أمر يثير بيننا التندر والتفكه.

في هذه الفترة كانت إشادته لي قصيدة شعر يتغنى بها في كل مكان، حتى أنني أظن أن هذا الإطراء المتواصل هو السبب في نفيي الذي تحدثت عنه، أي أن المسألة كانت تصفية حسابات بين السلطات العليا.

المرحلة الثانية كانت بعد عودتي من منفاي بالمنيا، وكان الحال قد تبدل وأصبح غير الحال. فالرجل المغضوب عليه قد تثبت في موقعه، وأصبح في حالة تسمح له أن يمارس فيها مظاهر العظمة والخيلاء. فكان من عادته أن يقوم بمرور يومي على كل مناطق العمل، محيطا نفسه بكوكبة كما في الزيارات التي نعهدها من الناس ذوي الحيثية، في عملية أشبه بالمسرحيات الكوميدية، حيث يلقي التعليمات والنصائح والتوجيهات فيما لا يفهم بالمرة، ليتلقى سيل الإطراء على سعة علمه وخبرته، ثم يمضي لحال سبيله سعيدا بما سمع، ويسير العمل كالمعتاد وكأن شيئا لم يكن.

ولم تكن (قاعدة هويلس) بالمكان الذي تمارس فيه مثل هذه المسرحيات الهزلية، فعن نفسي ليس بي صبر على هذا العبث مهما كانت سلطة ممارسه، وليس من عادة لساني أن ينطق بما لا يقره

القلب، حتى ولو لم يترتب على ذلك أي ضرر، فقررت أن أحــول بينه وبين القسم الذي أرأسه، فكان الموقف التالي مع زيارة له:

- بتعمل إيه يا فلان؟

-بنعمل قياس لـ .... وأتحفته بعدة اصطلاحات معقدة اختيــرت بعناية، ضابطا درجة الصوت وسرعته بحيث لا يتيحان التقاط شيء منها.

وسأل بعظمته المعهودة: هيه، وطلعت كام. (طبعا أي كلام)

الإجراء التقليدي أنه مهما كان الرد فسوف يعبــر عــن عــدم رضاه، ويعطي ما يعن له من تعليمات بلهاء، ويمضي لحال سبيله. ولكنه لم يكن داريا بالمطب الذي دبرته له، حين نظرت إليه فــي تحد سائلا:

- هي إيه؟

وارتج على الرجل، فتغير وجهه إلى كل الألوان الممكنة، بينما تمتمت شفتاه للحظات، ثم استدار خارجا بوجه غير الذي دخل به، تلاحقه الضحكات المكتومة.

ومن يومها تحقق ما كنا نبغي، إذ شطب المرور علــى قســم الاتصالات من جدول المرور اليومي لسيادة المدير العام، ولكــن ليضمر شيئا آخر.

على مدى عدة أشهر تالية أصبح الافتتاح التقليدي للاجتماعات الدورية هي إتحاف العبد لله بكل ما يفتح الله عليه به مــن طعــن وتحقير، بمناسبة أو (وهو الغالب) بغير مناسبة.

وكان علي أن أواجه هذا التجني المتطرف تجاهي بصبر غيــر معتاد مني في هذه الظروف، أولا لأنني لا أنســى مواقــف مــن

الشهامة معي في المرحلة الأولى من علاقتنا، ولست بالذي يعض يدا مدت له بخير، حتى ولو مدت بعد ذلك بالشر. وثانيا لأن هـذا القناع من الظلم والتجبر لم يطمس إحساسي بالفلاح الطيب الـذي يكمن بداخله.

وعلى حين فجأة دبت صحوة لهذا الفلاح الطيب، فإذا بـه ذات يوم يستدعيني ليكيل لي آيات المديح مرة أخرى، معللا مواقفه معي على أنها كانت لمصلحتي حتى أزداد حماسا في العمل، وتقبلت منه هذا التعليل شاكرا، ولم يكن يدري أي منا أنه كان الوداع الأخير بيننا.

لقد قضي الرجل نحبه ضحية جنون عظمته. ذلك أنه في لحظة نسيان للحجم أصدر تصريحا للصحافة عن السد العالي ما أن قرأه الوزير حتى استشاط غضبا، فأصدر قرارا بنقله إلى القاهرة ليضعه بين يدي من لا يرحم، فمارس معه تكديرا لم يتحمله قلبه الضعيف لعدة شهور قلائل.

*****

حكاية "دبانة نجع حمادي"

على حائط مكتب صيانة الخطوط في محطة نجع حمادي كتبت اللوحة الآتية:

من لم يمت باللغم مات مكهربا

تعددت الأسباب والموت واحد

بهذا البيت المؤثرعبر العاملون في صيانة الخطوط بفكاهة أهل مصر المعهودة عن واقعهم التراجيدي آنذاك.

فأما قولهم "مات مكهربا" فيشيرون فيه إلى حقيقة إدخال خطوط السد العالي عالية الضغط التشغيل الفعلي دون تدريب كاف للعاملين واستعدادات مناسبة للوقاية، فكانت الحوادث الجسيمة متكررة الحدوث راح ضحيتها من الأنفس بين من توفاه الله – وهم المحظوظون – وبين من خرجوا منها بعاهات جسيمة حتى استقر الوضع.

وأما الموت باللغم فله قصة أخرى. ذلك أنه في الفترة التالية للنكسة أخذ أولاد عمومتنا من بني إسرائيل يكررون زيارتنا، وفي كل زيارة يتركون عدة بصمات في المواقع التي يزورونها، خاصة في مواقع خطوط ومحطات السد العالي.

وقد كانت لمحطة نجع حمادي شرف استقبال أول زيارة لأبناء العم، في ليلة الاحتفال بمولد سيدي عبد الرحيم القنائي. وفي هذه الزيارة نفذ الإسرائيليون ثلاث عمليات، الأولى هي نسف كوبري قنا الذي لم يكن قد مر على افتتاحه سوى شهور قلائل، والثانية ضرب خزان نجع حمادي بالصواريخ، ولم يشأ المولى نجاح هذه العملية وإلا لأدت إلى خسائر لا يعلمها إلا الله في الأرواح والممتلكات.

أما العملية الثالثة لتلك الليلة المشهودة فكانت نزول الكوماندوز إلى ساحة المحطة ونسف كل المحولات والمعدات الأخرى، ونسف معها نتاج ثلاثة سنوات متصلة من الكد والجهد. إن منظر المحطة وهي تتأجج بالنيران نشاهدها من مدينة نجع حمادي، أي على بعد عشرة كيلومترات، من المشاهد التي لا تنسى مهما طال الزمن.

ثم كانت الزيارة الثانية، ونسف فيها برجا خط السد العالي المنشآن فوق جبل العقبة، وهو اختيار لم يكن عشوائيا، لأن هذين البرجين بالذات ليسا من الأبراج المعتادة، لوعورة الجبل وارتفاعه،

واستلزم الأمر إعادة تصنيعهما في بلادهما.

وفي الزيارة الثالثة كان نسف أبراج الخط من الناحية الشـمالية بمنطقة أولاد سلامة بسوهاج. وعند هذه المرحلة قـررت الإدارة السياسية تلغيم الأبراج.

استلزم تطبيق ذلك أن يكون الدخول للصيانة الدورية للأبـراج بواسطة ضابط ألغام من القوات المسلحة، يقوم بتأمين العاملين حين دخولهم، ثم إعادة التلغيم بعد خروجهم. وكما أن العصمة لا تكون إلا لله وحده، فإن الأخطاء كانت أمرا واردا، ومعها وقع العديد من الشهداء أو المصابين بإصابات جسيمة من المدنيين والعسـكريين على السواء.

وفي ليلة نسف المحطة فزعت من النوم على صوت مكتوم هز مدينة نجع حمادي، نتيجة انفجار عشرة من الوحـدات الخاصـة بالمحولات، تحتوي كل وحدة على مائة وعشرين طنا من زيـت المحولات. وحين اندفعت إلى الشرفة أستطلع الخبر، رأيت السماء مصبوغة بلون أحمر قان تجاه المحطة التي تبعد حـوالي عشـرة كيلومترات عن المدينة، فعرفت الخبر قبل وصوله.

كان هذا مساء أحد أيام الخميس التي يأخـذها العـاملون فـي تركيب الأبراج أجازة لمدة عشرة أيام (كل خمسين يومـا)، أي أن التوقيت كان مخططا له بكل عناية. في هذه الأمسية كانت طيبـة الذكر أماني ناشد مذيعة التلفزيون تقدم برنامجها الشـهير آنـذاك *عزيزي المشاهد*.

ويوم الأحد التالي وصل للمحطة كبـار مسـئولي الدولـة لتفقـد الوضع. كان على رأسهم علي صبري نائـب رئـيس الجمهوريـة،

ورئيس مجلس الأمة آنذاك السيد أنور السادات (المرة الوحيدة التي رأيته فيها)، ووزير السد العالي، ورئيس المصلحة، وكان الوفد مصحوبا بطبيعة الحال بكم هائل من رجال الإعلام. وقد تمت عمليات إزالة المخلفات وتزيين المكان استقبالا للزائرين في زمن قياسي، ثم كانت الدورة التفقدية التي تولى الإرشاد فيها رئيس المصلحة (الذي ذكر سابقا في قضية تكليف المهندسين وأخذهم *بالراس*).

- طبعا زي سيادتك ما شايف (لا أدري لمن كان يوجه الحديث من بين الزائرين)، الخسائر طفيفة للغاية. وأوعد سيادتك إن قبل ما توصل طيارة سيادتك للقاهرة، هيكون التيار وصل لها قبل وصول سيادتك.

إلى هذا الحد كان الرجل يبعثر التصريحات التي لا حساب عليها فيما هو في حدود اختصاصه، حتى وإن كان التيار قد وصل بعد وصول صاحب تلك السيادة بسنة ونصف تقريبا. ولكن الغريب أن تأخذ الرجل نشوة الوعود التي لا حساب عليها فيندفع متقمصا اختصاصات رجال القوات المسلحة:

- وأوعد سيادتك بأن بعد النهاردة ما فيش دبانة هتخش نجع حمادي!

وصارت عبارة "وأوعد سيادتك" عبارة مسكوكة تجري على على لساننا في المواقف المشابهة ردحا من الزمن، كما دخلت "**دبانة نجع حمادي**" نظامنا الإداري كشخصية مرموقة لارتباطها بأهم عناصره.

أما عن إعلان أن الخسائر طفيفة للغاية فلم يكن مقصورا على هذا الموقف الكوميدي، بل كان هو البيان الرسمي للدولة عن الحادث، حيث أذيع أن الإصلاح لم يستغرق سوى ساعات أطلق

بعدها التيار. وبالفعل جاءت بعثة من التلفزيون العربي وأجـــرت عرضا من داخل كنترول المحطة، أخذ فيها مهندس الوردية يلعب بعدة مفاتيح ليثبت أن المحطة في حالة تشغيل. يثبت لمن؟ هذا هو السؤال المحير! نحن نعلم أننا نكذب، والعالم يعرف أننـــا نكـــذب، فلمن نكذب إذن؟

أعتقد أن ممارسة الكذب تحول إلى شيء أقرب للهواية، أمـــر نقوم به لذاته دون استهداف غرض آخر، بمعنى أنه لا يعنينـــا أن يوجد من يصدقنا فيما نصدره من أكاذيب.

فمن هذا القبيل مثلاً أن الغارة الثانية استهدفت مع نسف الأبراج محاولة ثانية لنسف الخزان الذي فشلت عملية نسفه فـــي الغـــارة السابقة. في الغارة الأولى كان الفشل بسبب سوء التصويب، أما في الثانية فلسبب آخر. كان التكنيك هذه المرة هي إسقاط متفجـــرات تسير مع تيار النيل، فما أن تصطدم بجسم الخزان حتـــى تنفجـــر. وشاءت إرادة المولى أن تعلق تلك المتفجرات بورد النيل[1] فتنفجر قبل جسم الخزان بعدة كيلومترات، وينقذ المولى بلطفه أهل المنطقة من كارثة محققة، بل ويزيدهم من فضله بما جمعوه مـــن أســـماك طفت على وجه النهر بعد الانفجار.

الطريف في الأمر كانت المظـــاهرات التـــي طافـــت أرجـــاء المحافظة ابتهاجا بانتصار "المقاومة الشعبية" على العدوان وإنقـــاذ الخزان على أيدي رجالها!

*****

1- هذا من قبيل "رب ضارة نافعة"، حيث يسبب ورد النيل أضرارا بالغة بالري كما هو معروف.

وطالما أن الشيء بالشيء يذكر، فسوف أستسمح القارئ أن أقفز لعدة سنوات قادمة لأقص موقفا آخر من هذه المواقف الطريفة، مسرحه محطة كهرباء منجم الحديد في الواحات البحرية.

لقد جاء عيد الثالث والعشرين من يوليو وأتى معه موعد افتتاح عدد من المشروعات القومية التي كانت تعد لهذا العيد، ومنها افتتاح المحطة المذكورة. وكان الانتهاء من العمل بالمحطة متوقفا على شيء بسيط للغاية، المحولات الرئيسية لها لم تركب بعد. والسبب أشد بساطة، لقد ضاعت تلك المحولات - رغم ضخامة حجمها - في جمرك الإسكندرية. كيف تخرج الدولة من هذا المطب، المحطة في خطة المشروعات القومية المفتتحة لعيد الثورة، والمحولات لم تركب بعد[1]؟

الحل الذي تفتق عنه ذهن خبراء وزارة الكهرباء كان على النحو التالي: يوصل تيار بجهد التوزيع للمنازل، وهو 380 فولت من محطة سمالوط التي تبعد عن المحطة بضع مئات من الكيلومترات، لتغذى به إنارة المحطة (بدلا من الجهد العالي المقنن للمحطة وهو 132 ألف فولت الذي يغذي المحولات الرئيسية لخدمة المنجم)، ويدخل هذا التيار إلى لوحة الإضاءة لغرفة الكنترول، ثم تطفأ مصابيح الغرفة ويعاد إضاءتها من هذا التيار على يد السيد الوزير الذي يقوم بالافتتاح، ويتبع ذلك الطقوس التقليدية لمثل هذه الافتتاحات.

*****

1- ظلت ضائعة لأكثر من عام، وحين عثر عليها كان العوامل الجوية قد أحالتها إلى حديد صدئ.

ومن الذكريات المحفورة في ذاكرتي لهذه الحادثة ما حدث بخصوص نشاط المخابرات المصرية لتجميع المعلومات عنها. لقد ناداني أحد الزملاء واصطحبني إلى مكان ناء من المحطة، حيث سيارة واقفة بها أحد الأشخاص، فسلمت عليه محييا:

- أهلا يا سيد فلان.

- انت عرفتني ازاي؟

وفوجئت بالسؤال لدرجة حبس الأنفاس عن الضحك، لقد تعرفت به عن طريق زميلي وقابلته مرارا لأكثر من عام كامل، لم يحاول سيادته طوالها إخفاء أي شيء عن شخصيته أو عمله كضابط بالمخابرات. فما باله يدعي الآن أن شخصيته يجب أن تكون سرية؟

وأعاد لي الموقف قصة المطار السري الشائعة.

المهم أن موضوع المقابلة السرية كان المساعدة في تجميع معلومات تتهم زميلا لنا بأنه الجاسوس الذي ساعد اليهود على نسف المحطة.

واقشعر بدني هولا لهذه السهولة في اتهام خلق الله بما يمكن أن يوصل للإعدام.

وإليك سيدي الفاضل المبررات: لقد كان حظ هذا المسكين أنه عين في المحطة قبل الحادثة بشهرين تقريبا، وكان منطق ضابط المخابرات:

- اشمعنى يعني حصل النسف بعد ما تعين؟ (سؤال ذكي بكل تأكيد)

والحجة الثانية أنه مسئول عن الوقاية بما يعني أن خرائط المحطة معه.

وحين لاحظ سيادته حرارة الدفاع عن هذا المسكين، وأن ما بيده من خرائط هو لدوائر كهربية لا علاقة لها بمواقع تفيد المهاجمين، كان تعليقه:

- وانت خايف ليه، إنت مش متهم بحاجة.

هذا مبلغ الرجل ونظامه من العلم، طالما أنني مش متهم، فليذهب الجميع إلى الجحيم.

وبطبيعة الحال لم يعلم هذا الزميل بهذه الواقعة بالمرة فأغلب الظن أنه كان سيموت من الخضة لو علم بها.

*****

استربتيز إداري

القصة الأخيرة لهذا الفصل تقدم معنى في منتهى الخطورة حول تأثير الميري على حياتنا وقيمها، وكانت مناسبة لوضع مصطلح طريف اشتهر عني، متعلق بالميري ببلادنا الحبيبة.

كان يعز على صاحبنا بطل الفصل السابق أن يترك قاعدة هويلس في حالها، تمثل من وجهة نظره "دولة داخل الإمبراطورية". ولم يكن بيده شيء فعال، فاقتصر الأمر على المضايقات الإدارية المعتادة. لم يكن نظام الحوافز المالية قد ظهر في الحياة الوظيفية بعد، فحرم الرجل من استخدام هذا السلاح الجبار في التسلط على العاملين (كما أصبح الأمر بعد ذلك بعدة سنوات).

إلى أن جاء يوم ظننا أنا وهو أن الله قد أمكنه مني. كانت المناسبة هي رمي كابل الميكروويف الخاص ببرج جبل العقبة. وكانت بداية الاشتباك حين قدم إلي ذات صباح استجوابا يتضمن

أنه بمروره على العمل اليوم السابق رأى الكابل وقد دهسه بلدوزر فدمره، وأنني أتحمل المسئولية.

حسنا، إذا كان الله قد أمكنه مني أخيرا، فهذه مشيئته، ولكن ذلك لا يعني أن يهنأ بالنصر دون شيء من "حرق الدم". واستلمت الصورة من الاستجواب، وعلى الأصل وضعت الرد التالي: "أطالب بلجنة تحقيق محايدة، حيث لا يصلح سيادته خصما وحكما في آن واحد"، وعلى هذا حسمت الأمر غير عابئ بتلون خطابه بين التهديد والمداهنة.

وهرعت إلى موضع الحادث المشار إليه، وكانت المفاجأة، الكابل سليم معافى، وما رآه سيادته هو بقايا كابل قديم سرق اللصوص معظمه. ولم تعطه سوء نيته وفرحته بما اقتنصه فرصة لتدبر الأمر.

هنا جاء دور درعي الواقي، لقد أسرع الخبراء متطوعين بإجراء اختبارات كاملة على الكابل المدعى إتلافه، وتسلمت صورة منها تبين سلامة الكابل تماما، وهي بطبيعة الحال مكتوبة باللغة غير العربية، ضمانا لان تلقى كل احترام وتقديس.

وخلال لقاء صاحبنا برئيس المصلحة ليضع أمامه مذكرة لعقابي على إتلاف الكابل، دخلت مذكرة من جانبي تتهم سيادته بالتجني، مشفوعة بتقرير الخبراء. ولما كان من غير المعقول أن يعود صاحبنا خالي الوفاض، فكان القرار "الاكتفاء بخصم خمسة أيام من مرتبي" والاكتفاء هنا مبرره ظهور براءتي (ولا يعلم إلا الله مقدار العقوبة لو كنت مدانا).

ولكن القرار لم يوقع في آخر لحظة. لقد انفعل للموقف أحد المسئولين الذين كانوا في درجة وظيفية لا تزال منخفضة، ولكن من ناحية الوضع المؤثر فقد كان من أهم الشخصيات لندرة تخصصه، فهو المسئول الأول في موضوع الوقاية ، والتي كانت كالاتصالات تخصصا متميزا. لقد تدخل سيادته في الأمر، مهددا بالاستقالة لو مست شعرة من رأسي.

كان بالنسبة لنا أخا أكبر، بسط حمايته علي رغم كوني لست تابعا لإدارته الفنية مباشرة، ولكن ذلك لم يمنع من أن أعتبر من حوارييه المعدودين، على أساس ما بين الاتصالات والوقاية من وشائج ذكرتها في معرض سابق عن اختصاصاتي الوظيفية.

ومر على الحادثة عشرون عاما بالضبط، صعد فيها سيادته إلى منصب رئيس المصلحة، ووصلت أنا لدرجة مدير عام. ويشاء القدر أن يتكرر الموقف بحذافيره، تجن من رئيس مباشر لي، وانحياز من جانبه إلى الرئيس المتجني. ولم أكن وقتها محتاجا لخبراء لتعزيز موقفي، لقد كنت في وضع يمكنني من رد العدوان بأضعافه.

أخذت أتدبر ما صار لقيم هذا الرجل التي بهرتنا في صدر شبابه، أترى كان ثمن الصعود إلى هذا المنصب هو التجرد منها واحدة بعد الأخرى مع كل ترقية، كما تفعل راقصة الاستربتيز؟

ذكرني صديق لي ذات مرة بأنني القائل "**عشان تطلع إقلع**"، وإذا كنت غير متذكر لهذه المقولة، فإنني لا أستبعد ذلك، فهي نتيجة متوقعه لمصطلح "الاستربتيز الإداري" الذي طرحته تصويرا لمتطلبات الترقي في حياتنا الوظيفية.

ومن المواقف الطريفة في هذا الخصوص أنه حين تولى سيادته منصب رئيس المصلحة أقبل الزملاء يهنئونني كما لو كان المرقى هو "من بقية أهلي"، فقد كان لا يزال لديهم انطباع عن علاقتنا السابقة. كنت وقتها أرد على التهنئة بابتسامة إشفاق على حسن النية المبالغ فيها، تاركا الرد للزمن. لقد توقع المساكين أن أول قرار لسيادته سيكون برفع ما تراكم علي من ظلم وقتها.

وحين طال الوقت ولم يتحقق هذا الظن الحسن (ناهيك عن أن يكون هو نفسه مصدرا لظلم جديد كما دلت القصة التي رويتها حالا)، جاءني من يسألني لماذا لم أقابل سيادته لطلب ذلك منه، فكانت الإجابة التي جاء أوان الإفصاح عنها:

- أنا أعرف المهندس ...... الذي كان أخاً أكبر لنا في الستينات، أما الجالس في ذلك الكرسي فهو رئيس المصلحة، وهو شخص لا شأن لي به.

*****

بعد هذا الموقف بيني وبين مدير المحطة قدر له أن يضطر إلى أن يحجب أذاه عن عباد الله لمدة من الزمن، شغله الله فيها بحالة عن الآخرين. لقد تولى رئاسة المصلحة من وصفته في القصة الأولى بأنه "لا يرحم"، والذي كان مجرد ذكر اسمه يوقع الذعر في القلوب. كان كالعاصفة الهوجاء، لا صاحب له ولا صديق. على أنني والشهادة لله لم يصل لأسماعي عنه ما يفيد تجنيا على مظلوم، بل على العكس من ذلك تماما. فقد جعله الله سيفا على الظالمين مهما علا شأنهم، فكان عهده أمنا وأمانا لنا. وإليك قائمة اللطمات التي تلقاها صاحبنا على يديه:

اللطمة الأولى: من المعروف أن السد العالي يقدم المسكن للعاملين، وبالتالي لمدير المحطة مسكنا عبارة عن فيلا دورين مؤسسة بأفخر الأثاث، إلا أن صاحبنا وهو المدلل لم يشأ أن يستغل هذا السكن النائي، مفضلا عليه السكن المصلحي الذي هو به، والذي يبعد عن الموقع حوالي أربعين كيلومترا، لمصالح شخصية ترتبت على الإقامة بتلك المنطقة لمدة طويلة. وعلى حين غرة (كشأن ضربات العواصف الهوجاء) وصلت للمحطة الإشارة التالية:

* يخصم من ...... مدير محطة نجع حمادي بدل التمثيل عن الفترة ما بين إنتهاء مسكن مدير المحطة وتاريخه (حوالي عام ونصف العام)، لعدم استلامه له مما يدل على أنه لم يكن قائما بأعماله في إدارة العمل على الوجه الأكمل.
* يخصم من سيادته تكاليف الوقود والصيانة للسيارة ومرتب السائق طوال هذه الفترة لتمتعه بمسكنين مصلحيين خلافا للقانون
* إذا لم يتسلم مسكنه خلال أسبوعين ينظر في أمره.

وكانت أقسى ما في هذه اللطمة، رغم قسوتها المادية، هي تغير المناخ الذي تعود عليه.

اللطمة الثانية: لفت نظر سيادته للتجني على أحد الزملاء بتقديم شكوى ضده ثبت عدم صحتها. وجه العبرة البالغة في ذلك أن الشكوى كانت هذه المرة صحيحة، ولكن شاء المولى أن يخطئ سيادته في تاريخ الواقعة فلا يتمكن من إثباتها أمام المحقق.

اللطمة الثالثة: أخطأ مهندس ورشة السيارات إداريا بأن قام بصيانة محرك سيارة لأحد أصدقائه فيها، فأرسل سيادة المدير

شكوى ضده تضمنت وقت دخول المحرك ووقت خروجـــه، ومـــا أنفق عليه طوال مدة الصيانة من تكاليف، وأجيب لطلبـــه فكـــان الجزاء خصم ثلاثة أيام من مرتب المهندس علاوة علـــى خصـــم تكاليف الصيانة، على أن القرار جاء شاملا للبند التالي:

* يخصم من السيد مدير المحطة خمسة أيام من مرتبه (أي أكثـــر من جزاء المهندس الذي سعى لمجازاته، ونفس الجزاء الـــذي كان سعى لتوقيعه علي ظلما) لخروجه على مقتضى الواجـــب الوظيفي بأن تستر على هذه المخالفة، بينما طبيعة عمله هـــي منع المخالفات لا اتخاذها وسيلة للكيد والتشفي.

وكان هذا كافيا لأن ينزوي إلى أجل يلعق ما أصابه من جراح، منتظرا تغير الأحوال.

التقرير، كلاكيت ثاني مرة

تغيرت الأحوال بانتقالنا من تحت مظلة وزارة السد العالي – بانتهاء تركيبات المحطة ودخولها التشغيل – إلى المصلحة المسئولة عن الطاقة الكهربائية في الدولة. وتحت ظل الرئاسة الجديدة التي لا تعلم، ولم تشأ بأن تشغل بالها بأن تعلم، أحوالنا الوظيفية انتهت فترة البيات الإجبارية لصاحبنا، وبدأ يطل برأسه ليعود لممارسة هوايته في لدغ عباد الله، تطبيقا للآية الكريمة:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ صدق الله العظيم[1].

وشاء المولى ألا يحين موعد الترقية التالية إلا في ظل الرئاسة الجديدة،، فكانت الفرصة التي يتحينها صاحبنا لأربعة سنوات طويلة. وعن طريق سلاح التقارير الإدارية الذي وضعته الدولة تحت يد الرؤساء للاستخدام في هذه الظروف (نظريا لأسباب أخرى)، تمكن صاحبنا من تضييع الحق في الترقية (الدرجة هذه المرة كانت 88%، أي بفارق درجتين عن درجة الامتياز المطلوبة للترقية، بالضبط كما في كلاكيت التقرير أول مرة.)

1- سورة المؤمنون، الآية 75.

ولما كانت الشكوى لغير الله مذلة، فقد ضاعت شكواي أدراج الرياح. ولكن المولى كانت له إرادة أخرى لم نتبينها وقتها.

فقد تصادف أن دعي مهندسو الاتصالات بعد هذه الواقعة بعدة شهور للاجتماع بالمسئول الأول عن الاتصالات والتحكم في مقره بالقاهرة، والذي رغم طول عملي في الاتصالات لم ألتق به مرة واحدة، وإن كنت قد سمعت عنه الكثير. كان من عائلة إقطاعية كبيرة، فشب متعودا على السلطة المطلقة، وأن يأمر فيطاع.

وفي اللقاء راح سيادته يلقي كلمته مدبجة بالاسطوانة المعتادة في مثل هذه الاجتماعات؛ إلقاء النصائح والتوجيهات حول ضرورة بذل الجهد والعرق والإخلاص والتفاني وغير ذلك من كلمات طنانة، لم أكن على استعداد لسماعها وأنا في الحالة النفسية المسيطرة بعد ضياع الترقية. فأقدمت على ما أثار الهلع في نفوس الحاضرين، لقد رفعت يدي مقاطعا.

وفوجئ الرجل بهذا الإجراء الذي لم يتعود عليه، فوجه إلي نظرة صارمة لعدة ثوان، قبل أن ينطق بصوته الجوهري:

– فيه إيه؟

– بعد إذن سيادتك يا افندم، إحنا بنعمل ما تقول بدون حاجة لنصائح، لأننا نريد لأبنائنا التربية بالمال الحلال، أما لو لخاطر الشغل فليس في الشغل تعويض لأي مجهود.

وخيمت فترة صمت ثقيل لعدة ثوان، ثم سأل بهدوء:

– انت مين؟

– مهندس فلان.

- بتاع نجع حمادي؟

- دا سيادتك عارفني؟

- طبعا، وسامع عنك من سنين، بتقول كده ليه؟

- قبل ما أرد على سيادتك، أحب اعرف تسمع عني إيه؟

- أسمع عنك من الخبراء لمدة أربع سنين متواصلة ما جعلني أصاب بالصداع، وطول المدة دي نفسي أشوفك.

- طب ضيف لمعلوماتك بعد كل اللي سمعته إن الترقية ضاعت مني السنة دي.

وعاد الصمت ثقيلا، ثم قال أربع كلمات غيرت مسار حياتي:

- فوت علي في المكتب.

*****

بعثة لألمانيا الغربية لمدة سنة ونصف، وبعدها النقل للقاهرة، هذا ما كان نتيجة لقائي به تعويضا منه على ما أصابني من ظلم.

مثل هذه التطورات لا تتحقق لمن هو مثلي بسهولة، أجراها الله على يد من كان يتربص بي الشر لسنين عدة. ترى لو أن سيادته كان وليا حميما لي، هل كان سيفعل أكثر من ذلك؟

ألا ترى معي عزيزي القارئ أن هذا هو التفسير الصحيح للآية الكريمة:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [1] صدق الله العظيم؟

1- فصلت، 34.

لقد كانت هذه الآية تسبب لي حيرة شديدة. فظاهرها يوحي بأن مقابلة العدوان بالحسنى من شأنه أن يزيل العداوة بين الناس، فيتحول العدو إلى ولي حميم. وليس هذا متحققا في كافة الأحوال، بل كثيرا ما يحدث العكس تماما، أن يقابل الإحسان بازدياد نار الحقد والعداوة. هذا ما تقوله خبرتي الحياتية في رحلة العمر. فصاحبنا الذي ضربني هذه الضربة تحت الحزام كان في رقبته ديون لا يعلم مقدارها إلا الله، وليس من مجال لسردها. لا بد إذن أن للمسألة وجها آخر، فكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي لحظة استرجاع لرحلة الحياة وما مر بها من تناقضات، انتبهت إلى حقيقة كيف أجرى الله سبحانه الخير الجزيل في مواقف كثيرة، منها الموقف الذي نحن بصدده، ومنها ما سوف نتعرض له فيما بعد، على يد من كانت نفسه لا تضمر إلا الشر.

لقد ورد في الأثر أن الله سبحانه إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وحين أراد لي طريقا معينا في حياتي هيأ لي ضربة تحت الحزام كانت موجعة بلا شك بقدر قسوة مفاجأتها، فمن الذي يتصور أن مجهودا لأربع سنوات متصلة بمعدل أربع عشرة ساعة يومية (تقدير متوسط، أي على مدى أيام الأسبوع السبعة)، لتغطية منطقة تبلغ أربعمائة كيلومتر، داخل دروب صحراء الصعيد، وما أدراك ما الصعيد في الستينات حيث الطرق المعبدة رفاهية نادرة، يمكن أن يلقى هذا الجزاء بحجة تقرير بهذه الدقة المبالغ فيها بحيث لا يفرق سوى بنطين فقط عن الامتياز الذي يتطلبه الميري لمن يعتبرهم أهلا للترقي؟

على أن الذي لا شك فيه أنه لو خيرت في البداية أن أتلقى هذه الضربة وأنل بعدها ما نلت من تعويض لما ترددت في القبول. فلا يمكن للمرء أن يعدد أفضال المولى سبحانه التي نتجت عن هـذا التحول، والذي لولاه لما صرت إلى ما أنا فيه اليوم بفضل الله.

على أن هذه الأفضال لم تكن لتتحقق لولا ما قوبلت بـه هـذه الضربة من صبر واحتساب. فالسلوك الطبيعي لرجال الميري في هذه الأحوال أن يؤدي الإحباط إلى انخفاض الأداء، حيث تتـردد الكلمة المشهورة: "على قد فلوسهم"، وهذا المسلك مـن الأخطـاء الشائعة في عالم الميري. فلو أنك رددت الظلم الذي وقـع عليـك بظلم للبلد التي أنت تخدمه، دون ذنب منه، فقد فوت عليك فرصة نادرة لأن يجعل لك الله خيرا كثيرا جزاء صبرك واحتسابك.

قد تبدو مقالتي هذه وعظا دينيا، ولن يضيرني أن تكون كذلك، ولكن يكفي أنني أسوقها هنا من فوق منبر ذكريات الميري، أذكرها كتجربة شخصية وليس كخطبة منبرية مدبجة الألفاظ.

*****

كانت رحلة ألمانيا الغربية في بعثة تدريبية لعام ونصف العـام تعويضا عن الفترة السابقة من مشوار عمري كأفضل مـا يكـون التعويض، ولكنها من جهة أخرى كانت بمثابة الكعكة في يد اليتيم. فمثل هذه البعثات لا تقدم لآحاد الناس من غير ذوي الحيثية، ولهذا السبب فقد أخذها الزملاء قضية مسلما بها أنني من هؤلاء. والذي عمق هذا الظن أن الرئيس الذي رشحني للبعثة، وقد كان له مـن الموضع الإداري ما قدمت، خاض نزاعا حادا مع رئيس المصلحة

الذي لم يكن موافقا على ترشيحي، وحسم معه النزاع بلمزه بمـــن سافر في بعثة مماثلة ولم يعد للبلاد، وكان يعـــرّض بـــذلك بابنـــة رئيس المصلحة وزوجها، وكانا من زملائنا في العمل ولم يعـــودا من بعثة مماثلة بعد الاستفادة منها، ولـــم يطالـــب ذووهمـــا بـــرد التكاليف كما يتطلب القانون في مثل هذه الأحوال. ولما كان رئيس المصلحة في هذا الموقف في بيت أهش من الزجـــاج، فقـــد قبـــل الترشيح مرغما.

ولا أدري من الذي له فضل الإشاعة التي صدرت عن كوني ابن أخت أحد كبار المسئولين؛ ولكن المضـــحك فـــي الموضـــوع هـــو الشخصية التي اختيرت لذلك، إنه نفس الذي كان بصدد توقيع خصم لي مقابلا لظهور براعتي. لقد اختاروه من بين كافـــة الشخصـــيات المتاحة لسبب لا أعلمه، غير عالمين بما بيننا من ود مفقود. وحـــين نجحت جهودي في نفي هذه السمعة عني، أخـــذت أتلـــذذ بمراقبـــة انقشاع هالة الاحترام التي أحطت بها على سبيل الخطأ.

ولم تكن الطائرة التي أقلتني لبلاد الفرنجة التجربة الأولى لي فـــي ركوب الطائرات، فقد سبقها إلى ذلك عدة سفريات إلى أسوان، حيث التنقل بالطائرة يليق بحيثيتي الجديدة، بعد السفر إليها سنوات بسيارات الجيب الروسية، أو سيارات النقل المعروفة باسم "الزيل". وفي أحوال أخرى كان السفر بقطار النوم، ولكن كان ذلك يكلفني فرق نوم مقداره 44 قرشا، بينما بدل السفر هو 37.5 قرشا في الليلة.

وسافرنا إلى ألمانيا ثمانية من الزملاء في المصلحة، يصـــحبنا زميل آخر من وزارة الصناعة. ويكفي تدليلا على ما أحمله مـــن ذكريات هذه الفترة أن أصرح بأنني إلى يومنا هذا لا أتحمل رائحة

العطر المسمى "أولد سبايس" الذي كنت معتادا عليه هنـــاك، لأنـــه يثير في نفس حنينا لا أتحمله لتلك الأيام.

لم تكن قنوات الاتصال بين مناطق العالم قد انفتحت كما هـــو اليوم، فكانت الصدمة الحضارية عنيفة، سواء من الناحية الحياتية أو من الناحية الفنية، والأخيرة هي التي تهمنا في قصتنا هذه.

لقد أتيح لي الاطلاع على ما لم نسمع عنه، ولو سمعنا لعـــددناه من الأساطير. فمن كان منا يتصور تقنية تسمى "التحكم عن بعد"، يمكن بها لشخص أن يتحكم في توربين لتوليد الطاقة علـــى بعـــد مئات الكيلومترات عنه، فيشغله ويتحكم في سرعته ويوقفه؟ ومـــن منا كان يتصور تقنية "الدوائر الإلكترونية المجمعة"، حيث تكـــدس آلاف الترانزستورات فوق شريحة لا تزيد عـــن بوصـــة مربعـــة (وصلت في أيامنا إلى ملايين الترانزستورات، وهو مـــا يعطـــي أجهزة الكمبيوتر قدراتها المهولة التي نعايشها اليوم)؟

من كل ذلك وغيره نهلت ونهلت، لا أقـــول حتـــى ارتويـــت، فالإحساس بالارتواء أو الاكتفاء شيء لا يعرفه لا طالب المعرفـــة ولا طالب المال، وأحمد الله أن لم يجعلني من الصنف الثاني.

وعاد منا من عاد، وتخلف من تخلف انبهـــارا بمـــا عايشـــوه. وتحول مكتبي بعد عودتي إلى ما يشبه المعرض بما حملت مـــن بلاد النور والحضارة مما خف حمله وغلت قيمته الفنيـــة، وبمـــا تمكنت من نقله من نشرات فنية. أما المراجع فقد شحنتها بالبحر، وكانت مناسبة لأن أطلع على جانب آخر مـــن جوانـــب الميـــري الحبيب، متمثل في هذه الحالة في رجال الجمارك. لقد كان أخـــي الذي تولى تخليص هذه المطبوعات يحكي لي قصصا غريبة عـــن

الإجراءات الهمايونية اللازمة في ذلك، من أطرفها إصرار بعضهم على عدم إكمال الإجراءات إلا بعد أن يصيبه شيء من الخير الذي في الطرود، ولم يكن يقصد بطبيعة الحال المراجع، بل من المجلات التي تروي ظمأ المراهقين ومن في حكمهم، والتي لا يصدقون أن أحدا يذهب إلى هذه البلاد ولا يعود محملا بها.

كما قدمت سلسلة محاضرات عن تقنية التحكم عن بعد، ولم نكن ندري جميعا أن بلادنا الحبيبة على وشك الدخول في هذا العصر – نظريا – بعد سنوات قليلة.

ورغم كل ما قدمت عن حالتي الجديدة بعد النقل من الصعيد والعودة من البعثة، فيبدو أنني كأهل الهوى، مكتوب عليهم قلة الراحة. فبعد عودتي من ألمانيا كان طبيعيا أن أجد الرئاسات الإدارية قد تغيرت، وتغيرت معها الحيثيات، ولما كان تقدير الكفاءات استثناء وليس أصلا، فقد وجدت نفسي وقد أصبحت – ورغم استمرار ما كنت أحظى به من احترام – أعاني من بطالة مقنعة. كان الشيء المنغص في هذه المرحلة هو عدم وجود المسئوليات التي تمتص الطاقة التي اعتدت عليها في العمل بالصعيد، والخبرة التي اكتسبتها من بعثة ألمانيا. أو لنقل بصورة أعم الانتقال من العمل بالمواقع للعمل بالمكاتب، فأنتزع مما أعشقه إلى مالا أطيقه.

لا أنسى ذات يوم حين استدعاني مدير الإدارة، وكان من أحب الشخصيات التي تعاملت معها في حياتنا الميرية. لقد تفاعلت لهذا الاستدعاء قبل الأوان، ظانا أنه تكليف بأمر يخرجني من حالة الملل التي أمر بها. فإذا هو يفاجئني بالسؤال في لهجة يبدو فيها الدهشة:

- انت مكتبك كام درج؟

وفوجئت بالسؤال، فلم يسعني ألا أن أجيب:

- انتو نقلتوني من الصعيد لهنا عشان أعد الأدراج؟

فأجاب الرجل في لهجة اعتذار واضحة:

- لأ، أصل انا سمعت إنك قاعد على مكتب أربعة درج، وهـذا لا يليق بواحد زيك، إنت من حقك مكتب سبعة درج.

فكان الرد:

- وَالله أنا كان مكتبي في نجع حمادي صندوق خشب قاعد عليـه في الموقع، يا ريت تجيبوه لي وتجيبولي الشغل اللي كان أيامه.

*****

وكما يحدث للنهر المتدفق بالحيوية، إذا سد عليه مجرى اشـتق لنفسه مجرى آخر، كان الالتحاق بكلية الحقوق تنفيسا عـن الطاقـة الزائدة، حيث قضيت ست سنوات؛ أربع سنوات في مرحلة الليسانس ثم دبلوم العلوم الإدارية (مع درجة الامتياز في مادة البحث، وعنوانه "القيادة الإدارية في المنظمات العامة") ثم دبلـوم القـانون العـام، والدبلومان يعادلان درجة الماجستير.، وفي هذه الدراسة لم تمر علي صفحة في كتاب لم أشعر بلذة ما بها من معرفة.

ولعلم تتساءل لماذا لم أتجه للدراسة الفنية. الحق أنني قد أردت هذا في البداية باعتباره الطريق التقليدي فـي الدراسـة، فسـعيت لدراسات عليا في هندسة الاتصالات. ولكـن اتضـح أن جامعـة القاهرة الأنسب لسكني لا تقدم مثل هذه الدراسة، أما جامعة عـين

شمس فتقدمها في موضوعات لا علاقة لها بتخصصي. ولما كان هدفي من الدراسة موضوعيا وليس مجرد الحصول على شهادات تبروز على الحوائط، فقد آثرت أن أتوجه إلى دراسة رأيتها أجدى، دراسة تعدني لوقت أتقلد فيه منصبا قياديا، وليس أفضل من دراسة القانون ما يعدي لذلك، وأثبتت الأيام صدق رؤيتي.

ثم قررت أن أجرب حظي في البلاد العربية، فكان السفر إلى العراق كمهدس أجهزة دقيقة في شركة بترول الشمال، حيث قضيت عاما واحدا أعلنت توبتي بعده تماما عن مثل هذه المغامرة. لقد كان عاما فهمت فيه معنى مقولة شوقي رحمه الله بأن كلنا في الهم شرق، وعدت سالما راضيا من الغنيمة بالإياب. أما المكسب الحقيقي من هذه الرحلة فكان التطبيق العملي لتقنية التحكم عن بعد، والتي كانت مطبقة في محطات ضخ البترول النائية في الصحراء بهذه الدولة.

كانت هذه الخبرة التي تعتبر نادرة آنذاك هي سبب التعاقد معي للعمل بهذا، ولكنها أيضا كانت سبب المشاكل التي أدت لرفضي لتجديد العقد. لقد عز على بعض الزملاء من أبناء هذا القطر الشقيق أن يكون من حملة هذا التخصص المتميز واحد ينتمي إليهم برابطة الدين والعروبة، وليس من أبناء الفرنجة الذين تحنى لهم الجباه أينما حلوا. وكتب عليه أن أتلقى نم ضربات تحت الحزام في بلاد الغربة أيضا حتى انتهى العام.

******

ولدى عودتي من الخارج وجدت الإدارة بصدد تنفيذ مشروع لتطوير المرفق، وكالعادة كانت معركة توزيع المناصب محتدمة،

كل بحسب قوة الورقة التي يلعب بها، أما أنا فقد وقفت موقف المتفرج إلى أن انقشع غبار المعركة، ثم تقدمت لمنصب لا ينازع حوله أحد، أمارس من خلاله ما أطلق عليه "إنقاذ الأيتام الإدارية".

ذلك أن الأعمال في نظامنا الميري تنقسم إلى قسمين، أعمال تحت الأضواء، وأعمال وراء الكواليس، وأقصد بالأخيرة المخازن والأمن الصناعي والأرشيف، وهي أعمال لها قيمتها البالغة لدى الدول المتحضرة، فالمخازن تمثل ثروة المنشأة، والأمن الصناعي يحمي الثروة البشرية لها، والأرشيف يحفظ فيه المعلومات التي أصبح العالم الآن يعترف بقدرها. أما في الدول تحت خط التحضر فينظر لهذه الأعمال على أنها من الأعمال الوضيعة، لا توكل إلا لمن له وضع خاص: إما ضعيف الإنتاجية في العمل، أو مغضوب عليه (عبارة "ينقل إلى المخازن" تكون عادة بمناسبة التكدير)، أو محتاج للترقي وليس له مكان من الأماكن الراقية، فيكون لسان الحال "أهي ترقية والسلام".

وكما أن للناس عطفا فطريا على اليتيم، فإن لي عطفا فطريا للأعمال التي تنحسر عنها الأضواء، أجد فيها لذة العاشق لما يجهل الناس قيمته.

وتوليت هذه الأمور بالنسبة للمشروع من خلال إدارة أنشأت لي تتناسب مع المستوى الوظيفي الذي وصلت إليه، وهو "مدير إدارة"، فنظمت المخازن وأشرفت على عمليات توزيع الأجهزة في المواقع، ووضعت النظام لأرشفة المعلومات، وقمت بمعاونة المدير العام في الأعمال الجارية والترتيبات الخاصة بالتمهيد للعمل، إلى أن اقتربت اللحظة التي كنت أعمل حسابها منذ مدة طويلة، لحظة

وصول دوري في الترقية لدرجة مدير عام0

وكان السبب في هذا الشعور بالتشاؤم من اقتراب هذه اللحظة غاية في البساطة، لقد بينت الأحداث حتى الآن أن بيني وبين نظامنا الميري العتيد تفاهما مفقودا من كافة الزوايا، فما هو مستحب لديه مرذول لدي، والعكس بالعكس. وقد كان هذا ممكنا إلى الآن التعايش مع هذا التناقض طالما لم أصل بعد للمناصب القيادية، أما حين أكون محسوبا على هذا النظام كأحد المسئولين فيه، فهذا أمر آخر.

وقد صدقت الأيام صدق ظني، فكان شغلي لدرجة المدير العام سببا في خوض أعنف معركة ربما تكون قد مرت على موظف مصري، وألقت بظلالها على وضعي الوظيفي إلى آخر يوم لي في نظامنا الميري. ولكن لم يكن ذلك في هذا الموقع، لسبب بسيط، لقد كنت قد عزمت أمري على الهروب من الترقية المرتقبة، وأعتقد أنه إجراء شديد الغرابة على عالمنا الوظيفي.

ذات الشوكة

لمجتمعنا شهرة عريضة في إنكار النعمة إلى أن تزول، يشـــهد بذلك المرحومان عبد السلام شادي وجمال حمدان، اللـــذان كانـــا ضحية لوقوعهم في براثن الميري وإطفاء شعلة شهرتهما التي لـــم تتحقق لهما إلا بعد أن حانت منيتهما. وفي المقابل لم يتحقق لكـــل من فاروق الباز وأحمد زويل ومجدي يعقوب ما حققوا من شهرة إلا بفكاكهم من مخالب الميري المصري.

ولقد مررت على نطاق أصغر من ذلك بكثير بهـــذا الموقـــف مرتين، الأولى عندما أعلنت الشركة العراقية بعدم عزمـــي علـــى تجديد العقد معها، والثاني مع طلبي النقل من المكان الذي كنت فيه مرشحا لدرجة مدير عام. في المرتين سكب على ســـمعي آيـــات المديح المدبجة بالإغراءات والوعود، وكأنهم يكتشـــفون العبـــد لله للمرة الأولى، بينما لسان حالي يقول:

أتت بوصل وقت لا ينفع الوصل

وبطبيعة الحال لم أصرح بالسبب في طلب النقل من موقع يعد لي فيه العدة لدرجة يحلم بها الموظف من أول درجة فـــي الســـلم الوظيفي، فطبقا للمألوف في الحياة الميرية يعتبر ذلك ضربا مـــن الجنون، وهو ما لم أكن أعتبره ذما على أية حال.

وكان الله سبحانه عالما بما في نيتي، فهيأ لي الظـروف التـي يسرت لي ما كنت مقدما عليه. لقد طلبت إدارة التدريب معاونـة فنية من رئاستي لتحليل عدد من المناقصات لتوريد معامل تدريبية للاتصالات والكمبيوتر، فوقع الاختيار علي للقيام بذلك. وتوطدت بهذه المناسبة علاقتي بالمدير العام للتدريب، فحين عزمت أمـري على تحويل مساري، كان طبيعيا أن أستغل هذه العلاقة، خاصـة وقد كانت إدارته تعاني من نقص في الوظائف التي فـي درجتـي الإدارية في هذا الوقت، الأمر الذي مكنني من أن ألعب ظاهريـا دور المضحي بما أنا فيه من مكانة لمعاونته. وتحت ستار رغبتي في العمل بالتدريب، والتي كانت حقيقة يعلمها الجميع لنشاطي فيه رسميا وتطوعيا، تقدمت بطلب النقـل. وحـين أدرك رؤسـائي إصراري الحازم على الطلب، وفشلت كل وسائل الإغراء وعلـى رأسها الترقية المرتقبة، لم يسعهم إلا الموافقة.

ولكن من جهة أخرى كان في قرارة نفسي أن التدريب سيحقق لي أمرا كنت أتشوق إلى تحقيقه. كنت قد مللت إلى آخـر مـدى متناقضات الحياة الميرية، فتصورت أن التدريب هو المكان الهادئ الذي أقضي به البقية المقدرة لي في هذا المناخ الذي فرضه القدر علي. كان تصوري أنه لن يزيد عن المحاضرات التـي ألقيهـا، وليس في هذا مثار لنزاع أو خلاف. كانت صورة الأيام المباركة التي قضيتها في التربية والتعليم هي ما أنشد تحقيقه.

باختصار ظننت أن التدريب هو "غيـر ذات الشـوكة"، وهـو الوصف الذي وصف به القرآن الكريم قافلة قريش التـي كانـت

الهدف الأصلي من معركة بدر[1]. لقد كان كل تصور الرسول الكريم وصحبه الأخيار أنها غنيمة سهلة تعويضا لما صودر من أموالهم في مكة، ولم يكن أي منهم يعلم أن الله سبحانه جعلها سببا لمعركة يحق فيها الحق ويبطل الباطل كما ورد بالآية الكريمة.

وهكذا كان هذا النقل الذي نشدت فيه السلم والأمان سببا لأكبر معركة خضتها في تاريخ حياتي الميرية.

*****

كان الترحيب الحار الذي قوبلت به عند نقلي للتدريب من المدير العام ورئيسه المفتش العام خدعة هدوء ما قبل العاصفة. فقد فوجئت بداية من عدم توزيعي على أحد معاهد التدريب الخاضعة للمرفق كما كان الاتفاق، بل اخترت في موقع بالرئاسة كنائب للمدير العام، لمتابعة السياسة العامة والمشروعات التي تنفذ في الإدارة. وقضيت مدة نصف العام تقريبا في جو لم أكن أحلم به، استقرت الأمور وزاد الرزق (بالتعبير الميري الشائع "اشتغلت البنديرة")، ولم يكن في التصور أكثر من ذلك حسنا.

وكانت العلاقة بين رئيسي ومرؤوسه تبدو كأحسن ما يكون، وهو ما أعطاني إحساسا مبالغا فيه بالأمان، فلم أكن داريا بما يجري تحت السطح بينهما من تنافس غير شريف، سببه مشروع لتطوير التدريب تزمع الهيئة على تنفيذه. كان المفروض أن يعطى

1- يقول الله سبحانه: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ صدق الله العظيم، الأنفال، الآيتين 7 و8.

المشروع لهيئة أجنبية معينة، وقد بدأت بالفعل خطوات في دراسة المشروع بمعاونة المدير العام قبل تولي المفتش العـــام لمنصـــبه. واشتعل الخلاف حينما بدأ المفتش العام يخطط لإسناد المشـــروع لجهة أجنبية منافسة.

وحين وصل الخلاف لدرجة العلانية، أحسست بالفخ الذي سوف أستدرج إليه، حين يحاول كل طرف استقطابي لجانبه، فالتزمـــت الحياد التام بقدر إمكاني، ولكن التطورات كانت تتصاعد إلـــى أن تحقق ما ليس منه بد، ووجدت نفسي أقحم فيما كنت أحاول الهرب منه في موقعي السابق، وهو الخوض في معارك إدارية لا تحقـــق للبلاد إلا كل شر.

******

حين تفاجأ بشخصية لها وزنها، لا يعنيه في الظروف العادية أن يرد عليك السلام، جالسا بجوارك في مكتبك المتواضع، يصب في أذنيك معسول الوعود، فعليك على الفور أن تتمثل قول المتنبي:

إذا رأيـــت نيـــاب الليـــث بـــارزة

فـــلا تظـــنن أن الليـــث يبتســـم.

كان هذا البيت هو ما يطن في أذني وسيادة المفتش العام يمارس هذه اللعبة (القرعة) من ألاعيب الميري، والتي فات أوان أن تـــدخل على مخضرم مثلي، حفظ القاموس الميري عن ظهر قلب.

في اللحظة التي فوجئت فبها جالسا إلى جواري إلـــى منضـــدة الاجتماعات في مكتبي، دقت كافة أجراس الإنذار في عقلي الباطن وعقلي الظاهر على السواء. أيقنت أنني مقدم على أمر خطير لـــم

أدر ملامحه بعد، وأخذت والرجل مسترسل في حديثه المدهون بالزبدة – كما نعبر في أمثالنا الشعبية – ارسم السيناريو الذي تخيلته في مثل هذه الظروف، طبقا لما حفظته عن قاموس الميري.

الخطوة الأولى: هي ما تتم أمامي حاليا من معسول الوعود.

الخطوة الثانية: تطبيق الوعود من خلال تقريب المرؤوس على حساب رئيسه، وهي مرحلة تصيب رجل الميري المحترف بحالة من السعادة الغامرة.

الخطوة الثالثة: إحلال المرؤوس محل الرئيس بعد يكون قد تأهل لذلك نفسيا.

الخطوة الرابعة: توجيه لطمة اختبار للمرؤوس يكون توقيتها وهو في قمة النشوة بما تحقق له. بهذه الخطوة يكون الأمر بين احتمالين:

1- أن يصاب صاحبنا بالهلع فيخر راكعا متذللا، أو

2- أن يصاب بالذهول فينفجر ثائرا، وهنا يركل بعيدا ليحل محله مرؤوسه الذي أعد لهذه اللحظة دون أن يدري.

الطريف أن الرجل كان يغريني بما لا يعلم أنني لم أنقل نفسي لإدارته إلا فرارا منه، الترقية حين تكون على حساب أمور غير قابلة للتنازل في عرفي، ولكنه معذور في ذلك، فمن أدراه أنني أطبق القاموس الميري (بالمقلوب)؟

وأسند إلي التعاون مع خبراء الجهة التي استقر أن تنفذ المشروع، والتي رفض المدير العام التعاون معهم. وسارت الأمور في دراسة الاتفاقية سيرا حسنا، وبقدر ما كان يتحقق من تقدم في

العمل في دراسة الاتفاقية، بقدر ما كانت العلاقة تزداد توترا مع رئيسي المباشر.

وكما يحدث بالضبط في الأعمال الدرامية (مثل دور حسن عابدين في مسلسل "في المشمش")، حيث يبني المدافع عن وجهة نظره أسلوبه على الجعجعة والانفعال الأهوج، أرسل المدير العام مذكرة للوزير تناولت من السب والقذف في حق رئيسه أكثر مما حملت من حقائق موضوعية فحسبت عليه، وكان سهلا أن يطرد من مصبه شر طردة، وتقرر أن يحل العبد لله محله، فكانت ترقية على غير أوان، وأصبحت على ما أنا باك منه محسود.

*****

تضمنت طقوس شهر العسل التالية للترقية زيارة إلى الدولة صاحبة الاتفاقية الجديدة، أما خبراء الدولة الأخرى فقد انتهى عملهم مؤقتا بتقديم عروض توريد المهمات إلى المفتش العام، وبقي أن نتخذ خطوة الرد عليها، وهو ما لم يحدث على الإطلاق.

وكان المنصب الجديد ودرجة الحرية التي أتيحت لي في هذه المرحلة فرصة لتطبيق الدراسة الأكاديمية[1] في موضوع القيادة الإدارية، معززة بدورة تدريبية لأربعة أسابيع حضرتها منذ عدة سنوات، من خلال برنامج تدريبي على القيادة الإدارية نفذته هيئة تدريب أمريكية لعدة أشهر للإدارة الوسطى والعليا في الوزارة.

1- حاز بحث العبد لله وموضوعه "القيادة الإدارية" خلال مرحلة الماجستير في القانون على درجة الامتياز.

ولموضوع إعادة تنظيم الإدارة التدريب من وجهة نظري وجهان، وجه تخصصي أعفي القارئ من الخوض فيه، ووجه مرتبط بالحياة الميرية بوجه عام، بمعنى أنه يرتبط بأية إدارة كبرت أو صغرت.

كانت الخطوات الأولى لتنظيم الإدارة تتمثل التحلل من الجزء الأكبر من الأعباء التي يتحملها المدير المصري التقليدي، وتوزيعها على الطبقة التالية من الإدارة، منها دفاتر الحضور والانصراف، وإجازات وتصاريح الخروج للعاملين (عدا مديري المرؤوسين المباشرين)، والتوقيعات المالية الروتينية، والمراسلات التي لا تتضمن مسئولية إدارية[1].

ومن أطرف ما مر بي في هذه المرحلة قصة "الخطة التدريبية" للمؤسسة، وهي مسئولية فوجئت بأن أحد العاملين يتولاها، رغم أن مدة عملي السابقة في الإدارة لم أحس بشيء من هذا القبيل. بل إن هذا الموظف بالذات (مع زميل آخر له في الواقع) كنت أظن أنه ليس من العاملين معنا في الإدارة لندرة رؤيته، واتضح أنه بعد أن ينتهي من مسئولية الخطة كما سأبينها حالا يتفرغ لقيادة التاكسي الذي يعمل عليه.

أما المسئولية فكانت كما شرح لي ذلك المسئول عنها تتلخص في ملء جدول يحتوي على أسماء مناطق المؤسسة، موزعة على التخصصات الموجودة بها: تدريب فني، تدريب إداري، تدريب

1- تعتبر درجة التفويض من الرؤساء للمرؤوسين من معايير التقييم الإداري في النظم المتحضرة، بمعنى أن ما يفخر به المدير التقليدي في مجتمعاتنا من أنه قابض على كل شيء هو صورة من الفشل الإداري في المجتمعات الأخرى.

مالي، .... ويملأ الجدول بضرب كل أرقام تؤخذ مــن جــدول العام الماضي في نسبة معينة تقابل نسبة الزيادة المفترضة للعاملين بالمؤسسة، (لم يتح لي بالمرة معرفة واضع الجدول الأصلي الذي اتخذ أساسا لهذا النظام)، ثم إرسال الجدول إلى إدارة التدريب فــي الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة، وتنتهي القصة عند هذا الحــد، لتتكرر عند حلول العام التالي.

كان منظر الموظف المسئول عن هذه القصة طريفا للغاية وهــو يشرحها بكل افتخار، أما أسئلتي عن تلك الخطة؛ هل تتابع من الجهاز المرسلة إليه، هل تتابع من أحد من المؤسسة؟ أو من المناطق المعنية؟ ما هي ضمانات مطابقتها مع الواقع الفعلي لاحتياجات المؤسسة؟ فلــم يفهم لها معنى على الإطلاق. كان الرجل ينظر لما يقوم به كطقــس مقدس، ليس مسموحا لأحد أن يناقش معقوليته.

وذعر الرجل حين أخبرته بأن هذا الطقس الميري لن يمــارس بعد اليوم، وأنه موزع على عمل آخــر، مــع احترامــي لاســمه الوظيفي الرسمي. وهددني بأن الجهاز لن يسكت، ولكني لم آخــذ بهذا التهديد.

وبالفعل انهمرت الاستعجالات دون رد فعل من طرفي، وفــي لحظة قدرتها، ذهبت لمقابلة المدير المسؤول بالجهــاز المــذكور. وفي لحظة قدرتها توجهت لمقابلة المدير المسئول بالجهاز، وما ان عرفته بمنصبي حتى هاج وماج لتأخر "خطــة التــدريب" التــي ينتظرها لعزز بها أضابيرة التي يتراكم عليها الغبار.

وحين لم تجد أسئلتي حول ما يفعل بالبيانات التي ترد إليه ردا، انقلبت الثورة حرجا وهو يعلم أن الأسئلة توجه إليه من خبير فــي

الموضوع، ثم أثلج صدر الرجل حين بينت له أنني أتيت له فيما هوة أجدى، وأنني بحاجة إلى خبرته الطويلة في إعادة تنظيم الإدارة، ليس فقط في موضوع الخطة بل في وضع لائحة للتدريب والأمور التنظيمية الأخرى على الأسس العلمية التي هم أساتذة بالفعل فيها، لولا الميري وتناقضاته وكان التعاون بيننا فاتحة خير، وأخذت خطة التدريب بعد ذلك شكلا آخر. بل استفدت بخبرة المركز فيما هو أكثر من الخطة، وذلك في وضع لائحة للتدريب مثلت انقلابا حقيقيا في نظام العمل.

بمثل هذا العمل بدأت تحمل مسئوليات الإدارة كما يعرفها العالم المتحضر، ولكن ليس إلى وقت طويل.

*****

وجاءت اللحظة المرتقبة للخطوة الرابعة. جاءت لطمة الاختبار على صورة مرور السيد المفتش العام على الإدارة في يوم أجازة لي، حيث انهال على كل العاملين بالسباب والوعيد، دون أن يقدم سببا ملموسا لذلك (يستحسن أن تكون لطمة الاختبار مجهولة السبب، أو حتى لسبب واضح البهتان، لتؤتي أثرها بدرجة أوقع). والذي جعل اللطمة أشد وقعا على العاملين بالإدارة أننا كنا نبدو، أنا وهو، كالسمن على العسل.

لم يكن يعلم السبب سواي، ولذا فلم يفهم السادة مديرو الإدارات على الإطلاق الابتسامة الهادئة التي واجهت بها هذا الخبر، ولم يسمعوا ما كنت أردده في مكنون صدري، "هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون". لقد فتح الرجل النار، وبقى أن يتلقى على يدي ما هو مقسوم له.

*****

علمتني قراءاتي التاريخية، وخاصة المعارك الحربيـة ومعـارك الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، بعض المبادئ المتعلقـة باستراتيجية إدارة المعارك، منها المبدأ الاستراتيجي التالي:

*** لا ترقص أبدا على أنغام خصمك.**

ولذا فمن المؤكد أن الرجل قد أخذته البلبلة حين كان رد فعلـي لا يقع في الاحتمالين اللذين توقعهما. بل لم يكن هنـاك رد فعـل بالمرة. كل ما علقت به أمام مرؤوسي المذعورين بأنه كأخ أكبـر لنا لا بد من تحمل مثل هذه الغضبات، فلعله كان متضايقا من شيء آخر. أما بيني وبينه فقد تجاهلت الأمر كلية، ولم يجد هو فرصـة لفتحه، لسبب بسيط، لأنه لم يكن له من سبب ليفتحه.

لقد كان الرجل ممنيا نفسه بجولة تكسب بالضربة القاضية فـي الثانية الأولى، ولم يدر بأن خصمه موطن نفسه على معركة طويلة النفس تطبيقا للمبدأ التالي لاستراتيجية المعارك الحربية:

*** الحرب ليست صراعا بين قوتين، بل هي صراع بين إرادتين.**

*****

سارت الاتفاقية بعد الانتهاء منها في طريق غير الذي قدر لها تماما، وفي هذا التحول تحول مجرى حياتي الميرية ليستقر علـى ريتم واحد إلى منتهاها. وكان العامل الجوهري في هـذا التحـول وصول خبير ليس ككل الخبراء الذين قابلتهم في حياتي الوظيفية، والتي كانت مبنية أساسا على التعامل مع الخبراء الأجانب بكل ما في جنسياتهم وطباعهم من اختلاف.

وسيظل أمر هذا الخبير من أعقد الأسرار، ترى هل كان من التفاهة بحيث ظننته أكبر من حجمه، أم تراه من الخطورة بحيث رغم كل ما حدث، لم أقدره حق قدره.

والوضع الظاهر من حاله أنه وجد في مجتمع من العالم الثالث فرصة أن يلعب دور طاغية مستبد، يتقمص فيها شخصية مترنخ أو بسمارك أو كتشنر[1]، كما وجد في كبار مسئولي المؤسسة تسليما بلا قيد ولا شرط يفتح له باب طغيانه بلا حساب.

حتى مقدمه للبلاد كان بصورة غير طبيعية قدر لي أن أكون شاهدا عليها. دعيت بوضعي الوظيفي لحضور جلسة اللجنة العليا للتدريب التي يتضمن جدول أعمالها مناقشة الاتفاقية. هذه اللجنة برئاسة رئيس المؤسسة. وفي الجلسة استأذن رئيسي مقرر اللجنة في حضور خبيرين من جهة التمويل للاتفاقية، فإذن لهما الرئيس. ولم يفعل الخبيران سوى أن قدما مذكرة باستقدام استشاري في مجال التدريب، كان وصف الدور الذي يلعبه ليس إلا الاختصاصات الوظيفية لرئيسي حرفيا (طبعا بصفة استشارية)، حتى أن أعضاء اللجنة قال ساخرا: "يعني هيكون هو (فلان، يقصد رئيسي) بس من الشمال لليمين"، وضحك هذا الفلان ولم يعقب. ورغم ذلك فقد تمت بسهولة أوحت لي أن الأمر متفق عليه من البداية.

فهمت أنه سوف يكون مساعدا لرئيسي، وهذا لا يعنيني في شيء، ولكن المفاجأة أنه عين رئيسا للمشروع لتنفيذ الاتفاقية التي

1- مترنخ طاغية نمساوي حاول مقاومة الحركات التحررية في أوربا، وبسمارك طاغية ألماني أسس الدولة الألمانية وأذل الشعب الفرنسي، فدفعت بلاده ثمن هذا التصرف الأحمق غاليا عندما انهزمت في الحرب العالمية الأولى، وكتشنر أحد طغاة الاستعمار الإنجليزي في بلادنا.

لم يضع يده فيها. أما الخبير الذي صاغ مع الاتفاقية باعتباره مدير المشروع فقد خفض وضعه إلى مساعد للمدير، وخفض وضع مساعده إلى الإشراف على برنامج التدريب في المواقع، ولكن هذا الأخير صعب عليه حاله فرفض.

وفي أول يوم لوصول الخبير المذكور استجمع كافة الصلاحيات الرئاسية للمفتش العام في يده، ولم يكن ذلك في السر، بل في اجتماع علني لإدارة التدريب بشرنا فيه بأن هذا الشخص مكانه تماما، كما وجه الكلام للخبير بأن أي تمرد على هذا الوضع سوف يضرب بيد من حديد، لأنه "لا يعرف الرحمة، بل يضرب بالكرباج". وأسررتها في نفسي، سائلا المولى أن يعنني على رد هذه الإهانة منه لبني وطنه أمام هذا الأجنبي بما يستحقه.

بالتأكيد هناك من أفهم هذا الخبير بأن هذا البلد مستباح ليس به من يسأل عن مصالحه. وحتى لو لم يكن قد علم ذلك من أحد، فإن تصرفات كبار مسئوليها كان يقول نفس الشيء بلا مواربة. فكل ما أقدم عليه من تصرفات وصلت إلى صورة تخريب متعمد ليس للاتفاقية فحسب، بل للإدارة العامة للتدريب برمتها، كان يمر على قلوب كبار المسئولين بردا وسلاما.

وطاح سيادته في الإدارة طولا وعرضا، لا يعنيه حتى إبداء أي قدر من الاحترام لشعب هذه البلاد أو حتى تقاليدهم الدينية والاجتماعية. وكان لي بسبب وضعي الرئاسي القدر الأكبر من هذا الطغيان، حتى أنني أعتقد أن لطمة الاختبار كانت مقدمة لحضوره، فقد كانت قبل مقدمه بشهر بالضبط.

*****

لو أن الأمر اقتصر على تبديد أموال الاتفاقية برعونتـه لهـان الخطب، فمصر طوال عمرها كالشجرة التي ينعم بخيرها غيرها، ولكن الخطورة كانت فيما أجراه في الاتفاقية بعد اعتمادها وتصديق مجلس الدولة عليها من تغيرات خطيرة.

لقد ألغى سيادته نشاط مشروع التدريب في المواقع، والذي يمثل ثلث الاتفاقية بالضبط، علاوة على أنه كان قد بدأ تجريبيـا لسـتة أشهر خلال دراسة الاتفاقية، ليحوله إلى نشاط بديل كـان تحـت ستار "تخطيط القوى العاملة"، ولم يكن في واقعه إلا تجميع بيانات العاملين في المؤسسة، خاصة رجال القيـادات الإداريـة العليـا والمرشحين لذلك، لتصب في إدارة خصصت تحت أمـره لهـذا الغرض بالذات.

هل كان ذلك تمهيدا لإطلاق يده في الترقيات للإدارة العليا كما فعل بالنسبة للترشيح للبعثات؟ ولصالح من يكون ذلك؟ أم ترى أن هذه البيانات كانت مطلوبة لجهة ما؟ وهل لجهـة التمويـل التـي اقترحت مقدمه دور في ذلك ؟ (بعد ترقيتي مباشرة صـرح لـي المفتش العام بأن هذه الجهة هي التي اختارتني بالذات لشغل هـذا المنصب، وحين رددت متعجبا كيف علمـت بشـأني رد بـأنهم يعرفون "كل خرم في البلد").

أسئلة من الخطورة بحيث أجدني في وضع لا أستطيع حتى التكهن بالإجابة عليها، وقد سبق أن قلت أنه ربما يكون الرجـل أتفـه ممـا ظننته، فلعلها مجرد شهوة سيطرة لا يتاح له أن يفرغها في بلده، فكان لا بد من بلد من العالم النامي يمارس في أهله عقده النفسية.

تعلمنا من دراسة القانون أن العبرة ليست بالنوايا، بل بالحقائق، والحقائق تؤكد ما يلي: أن هذا الرجل ماض بلا تردد في تخريب الاتفاقية، وأن المسئول الإداري الأول في الأمر مسلم بذلك تماما، وأن كبار مسئولي المؤسسة ودن من طين وودن من عجين، بما فيهم رئيس المؤسسة الموقع على الاتفاقية.

إذا أخذنا بسوء الظن إلى أقصى مداه نقول إن هذا مشروع تطوير التدريب الذي طنطن به المسئولون طويلا، والاتفاقية التي أبرمت بمناسبته، وكانت السبب لأن أحصل على ترقيتي قبل أوانها، كل ذلك لم يكن إلا ذريعة لدخول هذه الشخصية المشبوهة إلى البلاد وممارسة أعمال ضد صالح البلاد.

على هذا الأساس لم تكن ترقيتي إلا رشوة مقنعة لأقوم بدور أشبه بدور المحلل الذي يلجأ إليه بعض خربو الذمة في مجتمعاتنا تحايلا على شريعة الله.

والآن، وقد انهارت هذه الآمال العريضة، وانقضى شهر العسل بأحلامه الوردية، انحصر الدور التالي لي في التصدي لهذه الأصابع المخربة مهما كانت قوتها أو قوة من وراءها.

وعادت إلى ذاكرتي النبوءة التي ذكرتها سابقا، والتي جرت على لساني إلى شريكة العمر قبل هذه الفترة بعدة سنوات:

- ربنا يستر لما آخد مدير عام هيحصل إيه؟

الفصل السابع

الرقص مع الديناصورات

قلنا إن الحرب صراع بين إرادتين، فصاحب الإصرار الأقوى والنفس الأطول هو الذي يكتب له الغلبة، ولا عبرة بالاختلاف في القوة المادية في هذا الشأن. والعهد بالشر أنه على قدر قوة بطشه في بداية المعركة فإنه الأقصر نفسا، فاستراتيجيته مبنية على ضربة قاصمة، بقصد تحطيم العدو في الجولة الأولى، أما إذا ما تحمل الخصم الضربة وامتصها، فسوف تدور الدائرة عليه على المدى الطويل، مهما كانت قوته.

على هذا المبدأ بنيت استراتيجية المرحلة التالية. فبعد أن طاشت لطمة الاختبار ولم تؤت أثرها المتوقع، وأحسست بالخطر من تصرفات المستشار الأجنبي، بدأت في سياسة تقصد إلى استنزاف المعسكر المضاد وإنهاك قوته، قبل إشعال المعركة ضده. وتتمثل هذه السياسة فيما يلي: استفزاز لا يصل إلى حد الاشتباك، وخضوع لا يصل لحد الاستسلام. أخذت على فترات متباعدة أوجه بعض اللطمات الموجعة تحت السطح، ثم يتبع ذلك استسلام كامل لامتصاص ردود الفعل الناتج عنها، بحيث لا يجد الرئيس مبررا لطردي من الإدارة.

ورد المعسكر المعادي بأسلوب الاستفزاز من جانبه، وتولى ذلك المستشار الأجنبي، وهذا واجهته بالحلم المغري بأن يتمادى في غيه، إلى أن وصل لنقطة لا يستطيع محرضه الدفاع عنه فيها. وقد وقع ذلك حين اندفع يهاجمني بعنف أمام المرؤوسين، هجوما نسي فيه نفسه تماما. كان رد فعلي أمام المرؤوسين هو الهدوء التام، اعتمادا على عدم فهمهم للغته، فظنوا أنه غاضب من شيء ما وأنني أطيب خاطره. وما أن وصلت لمكتبي حتى دبجت خطابا لرئيس المؤسسة يتضمن على السطح شكوى، وفي الأعماق تهديد للجوء للسلطات العامة إذا لم يتدخل للدفاع عن حقي الوظيفي.

تمخض عن هذا الخطاب حفلة صلح عائلية، بمعنى أن حضرها خبراء المشروع بعائلاتهم، مع إصرار علي حضور زوجتي غير المعتادة على هذه الحفلات، ولكنها وجدت ترحيبا من سيدات الحفل أكثر مما لقيت أنا، رغم حاجز اللغة بينهن.

وكان درسا علم المستشار الأجنبي الأدب إلى أن حانت لحظة الهجوم من جانبي.

*****

خلال هذه المرحلة من المعركة، والتي دامت عاما كاملا شبعت فيها ضربا تحت الحزام، كان الذهن مشغولا بأقصى طاقته في رصد كل صور الخروج عن القوانين واللوائح وبنود الاتفاقية، مع أداء دوري في التنبيه لهذه الأخطاء حتى أكون قد برئت من ذنب الجميع. والعبرة المستخلصة من هذه المرحلة أن غرور الشر هو نقطة مقتله، فقد أصم السيد المفتش العام أذنيه عن كل الملاحظات التي كنت أبديها، اعتمادا على أنه فوق المسئولية.

وحين رأيت أن هذه المرحلة قد آتت ثمارها، وأن الخصم قد دخل في أرض لا يمكن أن يدافع عن نفسه فيها، تحولت من الدفاع السلبي إلى الهجوم الإيجابي.

المبدأ الاستراتيجي الثالث المستخلص من مرحلة امتصاص النيران:

*** لا تجعل العدو يسحبك إلى مرمى نيرانه، بل اسحبه أنت لمرمى نيرانك.**

والسؤال هنا: كيف يكون التخطيط للهجوم. الحقيقة التي يجب أن توضع نصب العين أن الهجوم المباشر على الرئيس هو خسارة محققة، فأولا سوف يستدعي تكاتف المعسكر المضاد، ومن جهة أخرى فإن ذلك مبرر لاتخاذ قرار بنقل المرؤوس (والمفروض أنه الطرف الأضعف في المعركة)، على أساس عدم التفاهم بين الرئيس ومرؤوسه، وهو الخطأ الذي وقع فيه الرئيس السابق بقلة خبرته.

ولهذا السبب كانت بداية التحرك من جانبي على صورة خطاب رسمي مختصر للغاية، موجه إلى رئيسي شخصيا، أبين فيه أن السيد المستشار يقوم بأعمال من شأنها الإضرار بصالح العمل والمصالح القومية.

لا تسل كم أحرج هذا الخطاب القليل السطور سيادة وكيل الوزارة، فمن جهة يوجه الخطاب اتهاما لخبير أجنبي، وليس فيه أي هجوم على شخصه، بل على العكس لقد صيغ الخطاب بعبارات ظاهرها الإشادة به وحرصه على الصالح العام، وبين سطوره اتهام إن لم يكن بالتواطؤ فعلى الأقل ضعف الشخصية والتفريط في سلطته الإدارية.

من جهة أخرى فالخطاب لم يوجه اتهامات محددة، فلست ممن يكشف أوراقه هكذا بسهولة، وحين سألني عنها أجبت أنني لن أكشف عنها إلا أمام لجنة تحقيق رسمية.

وهكذا صممت خطوة إشعال المعركة بحيث تضعه في موقف لا يحسد عليه، إما أن يتصرف ضد هذا الأجنبي المتهم صراحة بالإضرار بمصالح المرفق، وهذا ما لن يفعله بالمرة، وإما أن يتجاهل الخطاب ويدين نفسه بالتواطؤ، ولم يكن يملك إلا الحل الثاني، لأن الأول كان لسبب ما خارج استطاعته.

وهكذا كسبت الجولة الأولى.

*****

حين يقال إن إنسانا قد واجه ديناصورا فإن القول ينطوي على خطأ علمي فادح، فالديناصورات قد انقرضت قبل ظهور الإنسان بعدة ملايين من السنين، ولكن وجه التشبيه هنا أن مواجهة الإنسان لأي نوع من الحيوانات مهما بلغ جبروته تعتمد في المقام الأول على حقيقة أن ردود فعل الحيوان معروفة مسبقا، بينما تتسم ردود الأفعال للإنسان بالإبداع، شريطة أن يتقن هذه النعمة التي أودعها الله فيه. وينطبق القول بقدر كبير على مواجهة الطغيان، فهو يتميز بالبطش، ولكنه تقليدي في ردود أفعاله، سواء عن غباء أو عن غرور.

وعلى هذا الأساس كان رد الفعل على الجولة الأولى من معسكر الخصم متوقعة تماما، في اليوم التالي سحبت الاختصاصات الوظيفية، لتتحول إلى مرؤوسي الذي كان قد تم تطويعه تماما، وأغلقت "البنديرة" في وجهي، وسحبت السيارة

المصلحية. وبالتأكيد دهش كافة موظفي المصلحة حين فوجئوا بالسيد مدير عام التدريب عند موقف الأوتوبيسات، ولكنهم سرعان ما تعودوا الوضع، إذ سرعان ما اتضح للجميع أن سيادته قد أصبح من المغضوب عليهم، وإن كان السبب غير معلوم.

طبقا لقاموس الميري التقليدي فهذه الإجراءات ينتظر أن تؤتي ثمارها في فترة أقصاها أيام معدودة، بل إن إجراء واحدا منها كاف لأن يجعل الموظف يخر راكعا على ركبتيه. أما أن يواصل مسيرة التحدي لأكثر من عام (بل لنهاية الحياة الوظيفية) دون أن يفقد حتى الابتسامة الهادئة التي يتميز بها فأمر يتجاوز بكثير القدرات العقلية لديناصور.

والدليل على ذلك إجراء معين من هذه الإجراءات يعتبر خطأ استراتيجيا فادحا، ألا وهو سحب الاختصاصات، إذ كان فرصة ذهبية للتفرغ الكامل لإدارة المعركة، وهي حقيقة لم يدركها الخصوم إلا بعد فوات الأوان.

وهكذا فقد معسكر الخصم كل مدفعيته الثقيلة من أول جولة، ولم يكن بيده إلا أن ينتظر مصيره المحتوم، وأن يظل سيادة المفتش العام ومن وراءه إلى نهاية المعركة يرقصون على أنغام العبد الضعيف إلى الله سبحانه، والذي اجتمعت في يديه كل الخيوط.

*****

أحيانا ما تشبه المعارك دخول حقل الألغام، الخطأ الأول مهما كانت تفاهته هو الخطأ الأخير. وعلى ذلك فالخطوات يجب أن تكون مرسومة بكل دقة. ومن هذا المنطلق كانت المرحلة التالية

هي ما أسميها "تسديد الخانات"، وأقصد بها احترام التسلسل الرئاسي في التحرك، حتى مع معرفة عدم جدواه.

وبمرور شهر بالضبط على المذكرة المرفوعة للرئيس المباشر، وهي المدة التي تعتبر قانونا بمثابة رفض للمذكرة، رفعت واحدة للدرجة الأعلى، نائب رئيس المصلحة. ويختلف الرجل في مظهره عن الرئيس المباشر اختلافا جذريا، فهو يعطي الإحساس بالروح الأبوية لأسباب متعددة. ومر الشهر التالي في وعود وتسويفات، وتعاطف في قضية سحب الاختصاصات والسيارة، ولكن دون تصرف فعلي. وبمرور الشهر التالي رفعت مذكرة لرئيس المؤسسة بنفس الموضوع، تقبلها الرجل بقبول حسن ووعود معسولة، ثم تلا ذلك الصمت المعهود. ثم حان أوان تسديد الخانة الأخيرة، فعن طريق معرفة بوزير سابق أمكن تحديد موعد مع السيد الوزير، الذي ظن أن الأمر لن يعدو خدمة عادية يخدم بها زميله السابق. واستقبلني الرجل بدماثة خلق عالية مشهور بها، وحين عرف الموضوع الذي جئت من أجله، وهو إخطاره بأعمال تخرج عن القانون في اتفاقية التدريب، سأل على الفور إن كنت قد أخطرت بها رئيس المؤسسة، وكانت الصورة التي أحملها له من مذكرتي لهذا الأخير طوق النجاة.

أخذ سيادته المذكرة شاكرا، وكتب اسمي في النتيجة أمامه، وكان هذا هو عهدي الأول والأخير معه.

*****

لم تكن الخطوة التالية، وهي الاشتباك الفعلي، بحاجة لمرور الشهر المعهود، لأنها ليست من الإجراءات الإدارية. في تسلسل

هادئ بدأت الاتصال بالجهات الرقابية المختلفة، مثل العازف الذي يلعب على أوتار آلته. والحيلة الأساسية أن كل جهة لا تعرف عن الاتصال بالجهة الأخرى. ومع صدى أول تحرك رغم ضآلته دب ما يشبه الزلزال في معسكر الخصوم، ولا تسل عن حالة الخبراء وقتها وما أصابهم من هلع، أما مستشارهم فقد بدا وكأن الأمـــر لا يعنيه، لقد ظل في برجه العاجي كمن لا يحس بما يدور حوله.

وواجهني رئيسي بمعرفته باتصالي بالجهات الرقابية، ونصحني مستهزئا بالقيام بالمزيد من هذه الاتصالات. وربما كانت هذه الثقة هي السر في عدم مبالاة مستشاره، فقد ظن الرجل أنه يعتمد على ركن شديد.

ووكانت خطوة المعسكر المضاد متوقعة تماما، لقـــد جـــاءني رسول من قبلهم يطلب الصلح وإعادة المياه إلى مجاريها، فأبديت ترحيبا حارا. وفي مكتب الرئيس المباشر أقيمت جلســـة الصـــلح ضمت بالإضافة إليه سيادة المستشار، ونائبي الذي كان قد أصـــبح اشتراكه في المعركة ليس سرا، وبحضور الوسيط، والـــذي كـــان يشغل منصب رئيس الأمن في المؤسسة.

وعادت المياه إلى مجاريها لفترة ما، إلى أن فوجئت باستدعائي لأول تحقيق يحدث لي في حياتي الوظيفية.

*****

كانت التهمة، دون الدخول في تفاصيلها، محبوكة بين رئيســـي ومرؤوسي الذي وجدها فرصة سانحة للحصول على المقعد الـــذي أجلس عليه عن طريق التواطؤ ضدي. ولما طاش هذا السهم بسبب غفلة رئيسي في حبك التهمة، اضطر رئيس المؤسسة أن يكتفـــي

بلفت نظري، حفظا على ماء وجه خصمي، على أساس أن لفت النظر ليس عقوبة إدارية يمكن الطعن فيها قضائيا.

كان هذا نهاية الأمر من جهة الرئيس خائب التخطيط، أما من جهتي فقد كان الأمر على النقيض تماما.

تقتضي إدارة هذه المعارك المبدأ التالي:

*** انتهز أية هفوة يقع فيها الخصم، ثم اطرق على الحديد وهو ساخن.**

والهفوة كانت أن من ضمن ما أورده في اتهامه أن الخبراء يطعنون في كفاءتي وجدارتي بالوظيفة التي أتحمل مسئولياتها.

وتوجهت على الفور للملحق الثقافي للدولة صاحبة الاتفاقية، مهددا بأنني سوف أختصمهم أمام القضاء لتشهيرهم بسمعة أحد كبار موظفي الدولة (أقصد نفسي). وانتفض صحبنا غاضبا – وهو حريص على سمعة بلاده لدرجة التطرف – لهذا التصرف الأحمق من هذا الذي لا يعرف مسئوليته عما يقول، وأخبرني أنه سوف يتصل بالوزير فورا ليحتج على إقحامهم في مشاكل داخلية ليس من شأنهم أن يتدخلوا فيها. وفي اليوم التالي بدا جليا على وجه صاحبنا وتصرفاته أن الملحق الثقافي الأجنبي كان جادا في تهديده.

هكذا دبت فتنة بين أطراف المعسكر المعادي وانهار ما بين أطرافه من تحالف مشبوه. وأصبح المسرح مهيأ للهجوم النهائي من جانبي.

*****

كان الهجوم الأخير على صورة ملف سلم للنيابة الإدارية، كان الفضل في تدبيجه القانوني لله ثم للدراسات القانونية التي حصلتها،

حتى بدا الأمر وكأن المولى سبحانه قد اختار لي هذه الدراسة لهذه المعركة بالذات. ولم تقتصر بركة هذه الدراسات على هذا الأمر، بل إن درجة الماجستير في القانون قد حققت لي صورة من التبجيل بين من اعتبروني زميلا لهم من أعضاء النيابة الإدارية.

وكانت جولة النيابة الإداريـــة معركـــة مـــن طـــرف واحـــد، فالاتهامات التي صيغت على مدى سنتين كاملتين على نار هادئة لم يكن بها ثغرة تتيح تنصلا أو تبريرا. وفي غضون فتـــرة قياســـية كانت المعركة قد حسمت.

وحين بشرني السيد رئيس النيابة بتقييد الشكوى قضية أخـــذت رقم "قضية رقم 24 لسنة......"، قال مبتسما إنه من غير المعقول ألا يثبت من عدد الاتهامات الخمسة عشر اتهامان أو ثلاثة علـــى الأقل، فأجبت واثقا: "سوف يثبت منها بمشيئة الله خمســـة عشـــر اتهاما"، ثم رددت على تساؤله لسبب هذه الثقة المفرطة قائلا: "لأن الاتهامات في مجموعها أضعاف ذلك، لم أقدم منها إلا مالا يقبـــل الجدل بأية صورة". ولم أكن مغاليا في مقولتي هذه على الإطلاق.

لقد كان منظر صاحبنا صاحب السلطان المطلق وهو ينزل من برجه العاجي ليمثل أمام النيابة أفضل رد على ما زعمه من قبـــل بأنه يسوقنا – نحن مرءوسيه – ضربا بالكرباج.

بقي أن نقول إنه خلال هذه المعمعة ضاعت الترقية المستحقة، والتي كنت قد وعدت بها، ولكن لم يتجرأ أحد فـــي عزلـــي عـــن الوظيفة رغم أنني كنت أشغلها اسما، ورغم كل ما كان يحدث.

كعب داير

مثلت القضية 24 نصرا مؤزرا لم يكن علي إلا الاستفادة منــه بأقصى صورة. وبالفعل تمكنت بفضــلها مــن توجيــه الضــربة القاضية، وكانت على صورة أقصر خطاب كتبته في حياتي، موجه مني لرئيس المؤسسة، أخطره فيه بأن المخالفات التــي ارتكبــت بمناسبة تنفيذ اتفاقية التدريب، والتي رفعتها لسيادتكم بتاريخ (يعود التاريخ لعام مضى) قد أخطرت بها النيابة الإدارية (اتهام مقنع له بالتواطؤ لكونه لم يتخذ إجراء في هذه الاتهامات طوال هذه المدة)، وقد قيدت قضية في حق مرتكبي هذه المخالفات رقــم......، ثــم مطالبته شخصيا بإيقاف أي نشاط متعلق بهــذه الاتفاقيــة لحــين الانتهاء من التحقيقات التي تجريها النيابة.

أخذ هذا الخطاب القصير شكل قطعة من المخدرات، يسارع من يصل إليه برميه إلى غيره، فأخذ يلف ويدور بين كبار مســئولي المؤسسة، كل يحاول التنصل من مسئوليته، خاصــة وتحقيقــات النيابة كانت تجري على قدم وساق. وفي غضون أقل من الشــهر حزم الخبراء أمتعتهم مرتحلين عن البلاد وعلى رأسهم مستشارهم الهمام، تاركا حليفه الوطني يدور في الدوامة التي فتحهــا عليــه غروره واستخفافه بمصالح بلاده.

وبرحيل الخبراء أقدم رئيس المؤسسة على ما جبن عن اتخاذه طوال ثلاث سنوات هي فترة المعركة، وهو سحب قرار تكليفي بالعمل مديرا عاما للتدريب، وهو ما يعني أن أعود إلى درجة مدير الإدارة، ثم أتبع ذلك بحرماني من الترقية لدورتين متتاليتين. وهو ما درجت على اعتباره الوسام الثاني الذي تقلدته في حياتي الميرية. وحين ألغي هذا القرار قضائيا على أساس أنه مشوب بإساءة استعمال السلطة، وأن مصدره لم يقصد به الصالح العام، اعتبرت ذلك تصديقا على هذا الوسام.

ومن المناسب القول بأن هذه القضية التي حكم فيها لصالحي هي أحدى ثلاث قضايا حصلت عليها أثناء فترة اضطهادي الوظيفي التي دامت خمسة عشر عاما متصلة، الأولى هي القضية 3194 لسنة 38 ق بتاريخ 1987/3/12، وقد صدر الحكم برئاسة المستشار نصحي بولس فارس، وعضوية المستشار محمد أحمد الحسيني وكيل مجلس الدولة والمستشار منصور حسن، وحضور المستشار محمد ماهر أبو العنين مفوض الدولة، وسكرتارية الأستاذ جمال كامل صليب، وجاء بالحيثيات: "ولما كان القرار المطعون فيه قد صدر بتاريخ معاصر لتاريخ رفع المذكرة سالفة الذكر والتي يشير فيها المدعي إلى المخالفات الجسيمة التي شابت تنفيذ الاتفاقيتين المذكورتين آنفا، فإن كل ذلك ينبئ أن هذا القرا قد صدر للحيلولة دون إجراء التقييم الذي أشار إليه المدعي في مذكرته، ويستهدف إبعاده عن رئاسة الإدارة العامة للتدريب الموكول إليها تنفيذ الاتفاقيتين المشار إليهما، ومن ثم فيكون القرار قد صدر مشوبا بعيب الانحراف وإساءة استعمال السلطة ولم يتوخ مصدره صالح العمل".

أما القضية الثانية فهي بتاريخ 1994/4/27 برقم 23 لسنة 21 ق وصادر من المحكمة التأديبية العليا بالإسكندرية ببراءتي من تهمة القذف في حق رئيس الشركة، وسوف تأتي ملابسات هذه القضية في الفصل التاسع، أما الثالثة فمن المحكمة الدستورية العليا بأحقيتي في الترشيح للإدارة العليا للشركة، وهو حكم لم أستفد به بسبب استقالتي.

*****

تضمن قرار سحب التكليف نقلا إلى مشروع آخر لا علاقة له بالتدريب، وكانت مناسبة للتعرف على شخصية تنضم لقائمة العظماء ممن قابلتهم في حياتي الوظيفية. كان يحمل درجة الدكتوراه، ولكنها دكتوراه بحق وليست مثل غيرها مما تجمع عليها من الغبار والعناكب بقدر وزنها، يشهد بذلك ما كان يقدمه من أبحاث في المجلات العلمية ذات الوزن، وما كان يدعى إليها من مؤتمرات دولية عمل محكما في البعض منها، وما أثرى به المكتبة العربية من كتب عن الطاقة وموضوعاتها، إلى أن حاز فيما بعد جائزة الدولة التقديرية، وأخيرا إفراد مقالة تشيد بأعماله في مجلة المهندسين.

لقد كان العمل معه فرصة لأن أجرب ما سمعته كثيرا عن أخلاق العلماء، إذ سرعان ما بسط حمايته على شخصي المنكسر، ولم يدخر جهدا في تضميد الجراح النازفة.

وبقدر ما حصل الرجل من مكانة علمية، بقدر ما كان حظه متعثرا في دهاليز الميري الذي لا يتقن مثلي السير فيها. ولا أنسى

حين ذكر لي متألما أنه الوحيد الذي لم تقم له حفلة تكريم بمناسبة إحالته للمعاش (ناهيك عن عدم مد خدمته كالمعتاد للمرضي عنهم)، فأجبته بأن هذا هو التكريم الحقيقي له، وأنه ليس بحاجة أن يعرف قدره من ليس أهلا لذلك، مذكرا إياه ببيت المتنبي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشاهدة لي بأني كامل

وكان العمل مع هذا الإنسان النزيه الشهم في بيئة عزت فيها هذه الصفات تحقيقا لقول الشاعر: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

ودام العمل معه قرابة العام. على أنه حدث خلال هذا العام شيء ليس في الحسبان، لقد فوجئت برئيس المؤسسة يدعوني لمصالحتي، وترقيتي!

لو أن إنسانا من رجال الميري يقدم على ترقية من تسبب في إحالته للنيابة الإدارية، فالأمر لا يخرج عن احتمالين، إما أن الرجل من أولياء الله الصالحين ليكون له هذا القدر من التسامح، وإما أنه يخضع لقوة هائلة تجبره على ذلك. والاحتمال الأول سر بين الله وعباده، ليس لي أن أخوض فيه، فكان المنطق يقتضي الأخذ بالاحتمال الثاني. شعرت بأن المؤسسة مجبرة على ترقيتي لسبب لا أعلمه (لم يكن الحكم القضائي قد صدر بعد)، وأن طلب مصالحتي ليس إلا إنقاذا لماء الوجه. وقررت حرمانه من هذه الفرصة، فأقسمت لو أن ترقيتي على أن ألقى عليه تحية الصباح ما فعلت.

وبصرف النظر عن كون المسألة تحديا في لعبة صراع القوى، فإنه حتى في الأوقات العادية لم أكن لأرضى أن تكون ترقيتي من

خلال طرق الأبواب، اللعبة التي لرفضها ضيعت على نفسي فرصا لا حصر لها سواء في الوظائف أو في البعثات الخارجية.

*****

وتحقق ظني تماما، وفي الحركة التالية كان اسمي مدرجا فيها، ولكن بعيدا عن القاهرة. والمثير في الأمر أن ترقيتي جاءت رغم الأيمان المغلظة التي أطلقها رئيس لجنة الترقي للإدارة العليا بأني لن أرى على أيديهم خير طالما هو على قيد الحياة، رغم أنه ليس بيني وبين الرجل أي شيء على الإطلاق، بل إننا لم نتعارف على المستوى الشخصي بالمرة. وكانت مناسبة نقلي إلى المحافظة التي ينتمي إليها فرصة لكي يتضح سر هذا العداء الذي تم على البعد.

حدث خلال رئاستي للتدريب أن أخبرني رئيسي أنه أحال لي موضوعا ذا أهمية خاصة، ويطلب مني تنفيذه على وجه السرعة لاهتمام رئيس المؤسسة به شخصيا. وبالفعل وجدت خطابا على مكتبي من رئيس إحدى المناطق ينبئني بأن المهندس *فلان* قد أرسل في سفرية لألمانيا لمدة عشرة أيام للتفتيش على العوازل، وبالتالي فقد سقط حقه في البعثة التي كان مرشحا لها لإيطاليا لمدة ستة أشهر، وأنه يرشح بدلا منه المهندس *ترتان*. ولم تكن هذه الحيلة الساذجة لتنطلي على مخضرم مثلي في ألاعيب الميري الدنيئة، حيلة أن ينهب أحد المحظوظين حقا لآخر. إن التعبير المصري لهذه المواقف هو أن فأرا يلعب في "عب" الإنسان، أما في التراث الأمريكي فيقولون أن المرء قد شم رائحة فأر *I smelt a rat*. وفي كلتا الحالتين فقد الفأر يمارس مهمته في إيقاظ الشعور بالتحذير، وامتعضت نفسي لهذا الأسلوب الرخيص في استخدام الوساطة.

قررت التصرف طبقا لما يمليه علي واجبي، وأن يكون ذلك على مسئوليتي دون الرجوع لرئيسي. أرسلت خطابا مباشرا من مكتبي لرئيس المنطقة أخبره فيه بأن لائحة التدريب لا تتضمن سقوط حق الموظف في بعثة تدريبية بناء على السفر لمأمورية مصلحية، ولم تفرق في هذا الشأن بين المأموريات في الداخل أو في الخارج، وبالتالي فحق *فلان* ما زال قائما في البعثة. وقابلت ثورة رئيسي العارمة لهذا التصرف بمنتهى التبلد.

ولم أربط إلا بعد نقلي بين هذه الحادثة والوعد القاطع الذي أقسمه رئيس لجنة الترقية على نفسه، والذي تراجع عنه لسبب لا أعلمه. لقد علمت أنه من نفس البلدة التي بها المهندس *ترتان*، وأن صلة نسب تربط عائلتيهما.

وكانت ترقيتي رغم كل هذه الظروف تطبيقا للمبدأ القرآني ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [1].

وقدر لي أن أزور عاصمة النور، باريس قبل نقلي مباشرة، وكانت بعثة من أفضال الرجل الشهم الذي عملت معه بعد نقلي من التدريب، انتزعها رغما عن الجميع، إذ أعلنها صراحة أن ترشيحي لصالح العمل، وأنه لا شأن له بالخلافات التي بيني وبين المؤسسة. كانت البعثة للتدريب على وسائل مكافحة تلوث الهواء، وكان يشترط إجادة أي من اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية، وبطبيعة الحال لم يكن هناك من يباريني في إجادة اللغات. وكانت فترة استجمام مما مضى، واستعداد لما هو آت.

*****

1- يوسف، 21.

كانت الشخصية التي قدر لـــي أن أعمـــل معهـــا ذات طبيعـــة متميزة، أقل ما يقال عنه إنه "الحجاج بن يوسف الثقفي" للمؤسسة. كان لسان حاله حين يمشي على الأرض المقولـــة الشـــهيرة: "يـــا أرض اتهدي ما عليكي قدي"، وكان يفتخر بعدد المرات التي أحيل فيها للنيابة الإدارية والعامة بتهم مختلفة متعلقة بـــالتربح وســـوء استخدام السلطة، يخرج منها جميعا كما الشعرة من العجين، ليتولى أرفع المناصب. كان لا يعرف لإنسان كرامة، ولكن والحق يقـــال كان في منتهى الكرم مع من يحني له جبهته.

ولست أدري إذا ما كان نقلي للعمل معه أمرا مقصودا، ليتولى بجبروته تأديبي على ما ارتكبته في حق القيـــادة الإداريـــة العليـــا للمؤسسة، أم أن تصرفاته الشاذة معي منبعثة من مسلكه الطبيعي.

كانت الترقية على قوة مشروع ما، ولكنه لم يكن ليدعني أستقر في مكان، بل طبق علي نظام "الكعـــب الـــداير"، لا أكـــاد أهنـــأ بالاستقرار في عمل أو في مكان إلا ونقلني منه. وتحملـــت هـــذا المسلك بطيب نفس، فمبدئي دائما أن العمل هو العمـــل، فـــي أي مكان وبأية مسئولية، بل حتى لم أتمسك بوضعي كمدير عام فيمـــا كان يكلفني به من أعمال أقل قدرا مما تقتضيه هذه الدرجة.

وبالإضافة إلى طبيعتي في تقبل أي عمل أكلف به، فقـــد كـــان مقابلة ممارساته معي من قبيل سياسة الاستدراج التي شرحتها مع أخينا بطل القصة السابقة، فالطاغية حين تصبر عليه ينسى نفســـه فيزداد تجاوزا، إلى أن يدخل الأرض التي يتعذر عليـــه أن يـــدافع عن نفسه فيها.

*****

الأمر الجديد علي في المناخ الجديد كان اتباع أسلوب الفضائح الأخلاقية في الحرب بين المتصارعين، وكان للناس هناك تفـانين في هذا الخصوص، الأمر الذي تطلب مني زيادة الحرص واليقظة، وتقبل أي أمر شاذ بالمحمل السيء.

ولن ندخل في تفاصيل ما دار بيننا من مواقف عنيفة بعـد أن استنفذ حقه من الإمهال، وهي مواقف اسـتمرت لحـوالي ثـلاث سنوات. ولكن الأمر المثير هو أن ريئس المؤسسة الجديد، رغـم مؤازرته المستترة له ضدي، وهو الأمر الذي أشرنا له سابقا بتعبير "الاستربتيز الإداري"، فإنه لم يتجرأ ويعبـر عـن هـذا التأييـد بإجراءات صريحة كما فعل سلفه في معركتي ضد رئيسي، فكـان أن جر معه في تحقيقات النيابة الإدارية. ولم يكن هذا المسلك منه إلا تطبيقا لمبدأ *رأس الذئب الطائر عن* جسده.

تقول القصة إن أسدا وذئبا وثعلبا اقتنصوا جملا وحمارا وأرنبا، وطلب الأسد من الذئب أن يقسم الغنيمة، فرد قائلا:

– القسمة واضحة يا مولاي، الجمل لك، والحمار لي، والأرنب للثعلب.

فلطمه الأسد لطمة أطاحت برأسه عن جسده، ثم استدار للثعلب طالبا منه أن يقوم هو بالتوزيع، فقال:

– القسمة واضحة يا مولاي، الحمار لإفطارك، والجمل لغـذائك، والأرنب لعشائك.

فسأله الأسد:

– من الذي علمك هذه الحكمة يا ثعلب؟

فرد قائلا:

- رأس الذئب الطائر عن جسده.

وبعد مواجهات عنيفة وسخيفة في نفس الوقت شاء الله أن تتحول العلاقة من عداوة إلى ود، وذلك بسبب تطورات لعب القدر فيها دوره المعتاد.

بداية هذه التطورات نقل رئيسي المباشر، المهندس المقيم للمشروع، وذلك إثر خطأ ارتكبه استحق عليه هذا الإجراء. إن عقد المشروع من النوع المسمى "تسليم مفتاح" بمعنى أن ما سوف تحصل عليه الشركة المتعاقدة من مقابل يغطي كافة الأعمال بدءا من تجهيز الموقع إلى أن يتم تشغيل المحطة وإدخالها في الشبكة. ورغم ذلك فقد طرح رئيس المنطقة عملية تجهيز الموقع في مناقصة على حساب المنطقة. وكان الخطأ من جانب رئيسي هو أنه تجرأ وتساءل كيف تحمل ميزانية المنطقة بمقابل أعمال تقاضت الشركة المتعاقدة أجرا عليها بالفعل، وملزمة بتنفيذها طبقا للعقد.

أما لعبة القدر فتمثلت فيمن حل محله، إنه رئيسي السابق في التدريب، والذي نقل مغضوبا عليه وحللت محله في تلك الوظيفة. وجاء الرجل مفعما بمشاعر من الكراهية ضدي تمثلت في أسوء ما يمكن أن يتصور من معاملة، فكان امتحان الصبر مزدوجا. أما لعبة القدر الثانية فهي أن يلقى الرجل مصرعه إثر حادث سيارة، فيخلو منصبه لعدة شهور.

وحين صدر قرار بتعيين بدل منه، أجرى رئيس المنطقة حساباته. إن المعين غير معروف لديه، حيث كان يعمل لمدة

سنوات طويلة في إحدى البلاد العربية. وتوجس من احتمال أن نكون ضده حزبا، فهداه ذكاؤه إلى أن يستقطبني قبل أن يصل الآخر. وتمثل الاستقطاب، بالإضافة إلى فتح *البنديرة* التي كان قد أغلقت في وجهي طوال السنوات الثلاث الماضية (بلغ عدد المكافآت التي حصلت عليها خلال هذه الفترة مكافأة واحدة بمبلغ 65 جنيها) سفرية للخارج.

واستمرت العلاقة بيننا طيبة إلى أن نقلت إلى جهة أخرى.

الفصل التاسع

قانون جريشام

من الأسماء التي لعبت دورا حاسما في معركتي ضد الخبـراء ومسانديهم من كبار المسئولين اسم الدكتور رفعت خفاجي، والذي كان يشغل منصب رئيس النيابة الإدارية آنذاك، وقبلها كـان أول قاض لمحكمة القيم عند إنشائها. كان رجلا صـلبا فـي الحـق لا يخاف فيه لومة لائم، ومن ثم فقد جرت التحقيقات في عهده في جو من النزاهة والحيدة مكنا العبد لله أن يكسب معركته، وأن تسـجل المخالفات قضية تحت الرقم المذكور.

وكأني كنت على موعد مع القدر، فما أن تحقق بفضل الله هذا النصر حتى أحيل الرجل للتقاعد، فتنفس الميري الصعداء، إذ كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.

لقد كانت النيابة الإدارية حتى ذلك الحين الشوكة الوحيدة الباقية جنبه، والتي يتعطش لاقتلاعها. كان أكثر ما يغيظه فيها هو تطبيق المبدأ القانوني الذي يعطي الموظف في الدولة الحق، بل ويلزمـه كواجب وظيفي، في الإبلاغ عما يعرض لهم من جوانب انحراف أو فساد بمناسبة أدائه لوظيفته، وحق النيابة الإدارية فـي إجـراء التحقيق بناء على هذا الإبلاغ، وحقها في الإحالة للمحكمة التأديبية دون سلطان عليها كجهة قضائية مستقلة.

ويعتبر الدكتور خفاجى آخر الرجال المحترمين الذين وقفوا بكل صلابة في وجه الميري الذي لم يفتأ يحوم حول هذه القلعة يحاول اقتحامها. فما أن أخلى موقعه حتى كانت العدة معدة لمن يخلفه رافعا الراية البيضاء، ويعترف للميري بسلطانه على النيابة الإدارية، لتتحول بعد ذلك إلى نمر سيرك، مقلم الأنياب والأظافر، أسوة بغيرها من الجهات الرقابية.

لقد تغير قانون النيابة الإدارية ليحول بين الموظف والاتصال المباشر بها، رغم مخالفة ذلك للدستور والقانون معا. أصبح على الموظف في الميري المصري إذا واجه انحرافا من رئيسه، أن يستأذنه في إبلاغ النيابة العامة ضده، أو يرفع شكوى إلى السلطة الأعلى، متغافلا أنها تكون في أغلب الأحوال متواطئة معه. ولم يكتف الميري في حربه للحصول على حريته المطلقة بذلك، بل منع النيابة من حق التصرف في القضية، بل كل ما عليها أن تفعله هو أن تحيلها إلى السيد الوزير المختص، مع (توصية) بإحالتها للقضاء، ولسيادته أن يأخذ بها أو لا، طبقا للمصطلح الذي ابتدع لذلك: (الملاءمة الإدارية).

ودخل هذا المصطلح الجديد إلى قاموس مصطلحات ما بعد الثورة، كفيروس ينضم إلى أمثاله من فيروسات تنخر في جسد الأمة مثل أهل الثقة قبل أهل الخبرة، والشرعية الثورية، وسيد قراره، وغيرها مما ابتدعه شياطين القوانين والتشريعات.

لم يكن الأمر سرا في أرجاء النيابة، لقد كان التطور التالي معلوما للجميع، وأن المسألة هي مجرد وقت إلى أن يحال الدكتور خفاجى للمعاش. وبالفعل جاءت البشرى السعيدة على لسان من

تولي خلفه هذا المنصب، وذلك بتصريح له يقول فيه إنه "لا يعتقد أن أحدا من كبار مسئولي الدولة سوف يتسترون علـى الفسـاد". وكانت هذه هي آخر عملية كرسي في الكلوب في ساحة مصـرنا المحروسة[1]، لينعم بعدها حبيبنا الميري بالحرية المطلقة بلا رقيب أو حسيب، وتلعب آلية المواءمة الإدارية دورها الظريـف، فـي الإمساك بالشراغيش لتسريب الحيتان.

*****

ولهذا السبب ضرب صمت ثقيل على القضـية بعـد خـروج الدكتور خفاجي للمعاش، ثم كانت الترقية المفاجئة لي في مكـان خارج القاهرة، ثم تلا ذلك تطور مفاجئ آخر.

طلبت ذات باستدعاء عاجل للحضور من منفاي إلـى ديـوان المؤسسة، وهناك وجدت جلسة صلح منعقدة، ضمت كـل أعـداء الأمس. وسمعت في تلك الجلسة من الاعتذارات والمجاملات مـا أشعرني أن في الأمر شيئا غير عادي يجـري وراء الكـواليس. واتضح السر حين علمت أنني مستدعى اليوم التالي إلـى النيابـة الإدارية، وأنها فرصة لسحب كل الشكاوى وتسوية القضية، مـع سيل الوعود البراقة المعتادة في مثل هذه المواقف.

وفي النيابة وجدت المسرح معدا تماما لما كان يعنيـه رئـيس المنطقة بتسوية القضية. وجه لي السيد عضو النيابة السؤال التالي:

- ما رأيك فيما ورد من المؤسسة بأن ما تقاضاه الخبراء قد دفـع من جهة التمويل، وبالتالي لم يقع أي ضرر على المرفق؟

1- أول عملية كرسي في الكلوب هو انتهاك قدسية مجلس الدولة في بداية تحمل الضباط الأحرار مسئولية البلاد، ولكن لا يدخل هذا في موضوع الكتاب.

طبعا سؤال ساذج لا يخفى على من لـه دراية بمثل هذه الألاعيب. فليس على المرء أن يكون على قدر متميز من الذكاء ليعلم أن جهة التمويل تعود على المرفق بهذه المصاريف.

في هذه اللحظة فقط شعرت بأنني كشفت سر الترقية المفاجئة، ووجه الإجبار فيها، لقد كان غير متصور أن أقدم مثل هذا الإقرار وأنا منتهك الحق في الترقية، وقد ضاعت قبل ذلك لمرتين. لقد كانت ترقيتي إذن ثمنا دفع مقدما لإجهاض القضية.

وردت على السؤال بالرد المنطقي، فضحك العضو متخابثا، ولم أسمع عن تلك القضية إلا بعد عدة سنوات، من شخصية سوف تعود للظهور بعد حين، إنه رئيسي السابق في التدريب، حينما أعاده القدر رئيسا علي مرة أخرى. قال لي بلهجة هازئة أن الوزير قد حفظ القضية التي أنهكت نفسي في السعي فيها. وفي ابتسامة هادئة كان تعقيبي على النحو التالي:

- بشرك الله بالخير، فمعنى أن يتدخل وزير ضد إجراء لي أن (بريستيجي) قد أصبح على مستوى الوزراء.

والحقيقة إن مثل هذا التساؤل كان يوجه إليه كثيرا، سواء عن طريق الاستهزاء أو الإشفاق أو الإحباط، ما جدوى أن يحاول الموظف العام أن يقف في وجه تيار الفساد، طالما أن الأمر سوف يئول في النهاية إلى أعلى رأس في النظام، والذي هو جزء منه؟

سوف أقتبس ردا على تساؤل كهذا جاء في مسرحية تسمى "بيكيت، أو شرف الله". تدور المسرحية حول رجل دين في إنجلترا، ربطته بولي العهد صداقة حميمة، كان يصاحبه فيها في لهوه ونزواته. وحين تولى ولي العهد الملك تحت اسم هنري

الثاني، عين صديقه الحميم رئاسة الكنيسة الإنجليزية، أملا في أن يطوع الكنيسة لرغباته الملكية. ولكن الذي حدث أن ضمير الصديق أبى عليه إلا أن يقوم بواجبه الديني بإخلاص، وقد أحس بثقل الأمانة، وانقلبت الصداقة عداوة استمرت على لقي رجل الدين حتفه على يد الملك. والموقف الذي أشير إليه هو سؤال سأله الملك لبطل القصة عن جدوى مقاومته له، طالما أنه الملك وكل شيء بيديه، فرد الكاردينال بيكيت قائلا:

- إن وجه الشرف في هذه المعركة أن تكون بلا جدوى.

وانتهت القصة تاريخيا بإعدام بيكيت، ولكن ظل المعنى المعنى المستخلص من هذه العبارة ساريا إلى يوم الدين، وهو أن مثل هذه الأمور إن لم تكن خالصة لوجه الله فلا خير فيها.

*****

لم تكن الهجمة التترية على قلعة النيابة الإدارية هي الانتصار الوحيد للميري في ثوبه الجديد لفرض هيمنته على رجاله وكسر إرادتهم تجاهه، بل إن تطورا آخر لا يقل خطورة، بل يزيد، قد حدث معاصرا للتطور الأول، ولكنه جاء بحسن نية هذه المرة.

لقد ازدادت الفجوة بين المرتبات الرسمية والمتطلبات الحياتية، والدولة بطبيعتها ضنينة للغاية في رفع المرتبات الرسمية، حيث تتحمل إزاءها أعباء إضافية، فالمرتب الرسمي هو الذي يتخذ أساسا لحقوق أخرى كالمعاش وبدل السفر وغير ذلك.

من هنا ابتدع نظام الحوافز المالية، والذي أخذ يتطور شيئا فشيئا إلى أن أصبح الواقع الفعلي للموظف أن دخله يعتمد بصفة

أساسية على هذا العنصر، والذي يعني واقعيا تحكم الرئيس في رزق مرؤوسه، وليس كالرزق سلاح رهيب يقصم أقوى الظهور.

وقد ظهر أثر التحكم في الرزق بأجلى معانيه في مستحقاتي بعد استقالتي، إذ كان البند المسمى "الأجر المتغير" شبه منعدم بعد فترة من الاضطهاد وصلت إلى خمسة عشر عاما، الأمر الذي بدا أثره جليا في مكافأة نهاية الخدمة أو في المعاش، والذي عبر عنه مدير عام العاملين بالمؤسسة بقوله إنه يوازي مستحقات درجة رئيس قسم بمعدلات المؤسسة، وليس درجة وكيل وزارة.

وفي هذا المناخ الميري الجديد الذي أصبح فيه الموظف المصري أشبه بالقوقعة التي نزعت عنها صدفتها، كان علي أن أقضي بقية المقدر لي في الحياة الميرية، لتأخذ محنتي معه شكلا آخر. لقد أعد المسرح تماما ليطبق على العبد لله قانون جريشام.

أما عن جريشام هذا فهو في حقيقة الأمر لا شأن له بالميري المصري، ولعله لم يسمع عنه على الإطلاق. إنه أحد علماء الاقتصاد، وضع قانونا شهيرا صار دون قصد منه من القوانين الراسخة التي تحكم نظامنا الميري بعد تطورات ما بعد الثورة المباركة:

*** العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق.**

*****

كانت أقسى مواجهة تالية متعلقة بالأمن الصناعي في الشركة التي نقلت إليها. لقد أوكل إلي الإشراف على هذه الإدارة بعد وفاة مديرها العام في حادثة مرور بالإضافة لعملي كمدير عام للمشروعات. ونشاط الأمن الصناعي هو نشاط منهار أصلا في ظل التسيب الإداري، وانعدام المساءلة عن المسئولية.

وكان حمل هذه الأمانة كما يجدب يستدعي صداما حتميا مع رئيس الشركة الذي ساءه أن رآني آخذ هذا النشاط بكل جدية، فالعهد بإدارة الأمن الصناعي أن دورها محصور في إرسال إحصائيات الحوادث، وتقديم المبررات التي تفضي إلى السبب هو مخالفة التعليمات، وأن "المرحوم كان غلطان"، وإذا كان الأمر أشد جسامة فليكن كبش الفداء أحد الفنيين أو المهندسين منخفضي الدرجة الإدارية.

وحين ضاق الرجل ذرعا بمضايقاتي أصدر قرارا بعزلي عن هذا الإشراف، وتلا ذلك ارتفاع مفاجئ في الحوادث، فاق المعدلات السابقة، والتي كانت في حد ذاتها محققة لرقم قياسي بين الشركات الأخرى؛ ففي غضون الشهر التالي لقي شهيدان مصرعهما صعقا، وأنقذ الثالث بإصابات جسيمة (نقول في مجالنا أن الذي ينقذ هو الأسوأ حظا)، أما الرابع فقد سقط من برج لعدم توافر حزام الأمان، وأصيب بكسر في العمود الفقري.

وأصبح في عنقي إجراء أخير، تقول القوانين إن واجبي يحتمه.

والعامل المصري محاط في حمايته من أخطار المهنة بأكبر قدر من الضمانات القانونية ربما على مستوى العالم، تجمع كلها على أن الرئيس الأعلى هو المسئول الأول عن تحقيق سلامة العاملين، وتلزمه بإجراءات قانونية صارمة لتحقيق ذلك. وقمت بعمل حصر لالتزامات رئيس الشركة في هذا الخصوص، فوجدتها مصاغة في ست وعشرين مادة، موزعة بين المصادر التالية: قوانين العمل (الفصل السابع)، تعليمات رئيس الجمهورية، تعليمات وزير القوى العاملة والتدريب، تعليمات الشركة القابضة، قانون العقوبات الجنائية.

وأتاح مناخ الملائمة الإدارية الذي أصبح شعارا مستقرا في الميري رئيس الشركة من أن ينتهك كل هذه القواعد، رغم أن انتهاك كل مادة منها يمثل جريمة إدارية أو جنائية.

وقمت بإخطار النيابة العامة بهذه الانتهاكات محملا رئيس الشركة مسئولية هذه الحوادث، اعتمادا على أن النيابة العامة لا تخضع للقانون الذي شل النيابة الإدارية، علاوة على أنها المختصة في الجرائم المنصوص عليها في قانون العقوبات.

وحفظت النيابة العامة الشكوى إداريا حتى دون أن أستدعى للمناقشة فيها، وهو أمر لم أفاجأ به البتة. لقد تعلمنا في القانون أن ظاهرة الإسهال التشريعي في مجال ما تعني في الحقيقة عدم النية الحقيقية لتطبيقه.

وأحالني رئيس الشركة للمحكمة التأديبية بناء على ذلك، فيما أعتبره الوسام الثالث الذي حزته في حياتي الوظيفية، وحين حصلت على حكم البراءة وجدت في حيثيات هذا الحكم وما تضمنه عني وعن خصمي – الذي كانت خدمته قد انتهت بعد أن تجاوز المعاش بعامين في رئاسة الشركة – تصديقا على هذا الوسام.

*****

ولكن الإجراء الذي أشادت به المحكمة كان له عند رئيس الشركة الجديد الذي عين في ظل قانون الخصخصة وقع آخر، لقد أصبحت بالنسبة له "مسجل خطر" كما كان الزملاء ينعتونني، فاتخذ الرجل عدته وبدأ بالهجوم من أول يوم تولى فيه المنصب، وأشبعني من ضربات تحت الحزام من كل ما أفرزه نظامنا الميري أشكالا وألوانا.

دخلت علي سكرتيرتي ذات يوم وهي في غاية مـــن الخجــل، تمسك في يدها مبلغا من المال مترددة في أن تقدمه لـــي، كانــت الحوافز الشهرية. وعلمت على الفور سبب حرجها، فقد سمعت أن السيد رئيس الشركة قد منحني ما يقل عن مديري العموم التابعين لي، وما يوازي ما منحه لأحد الفنيين التابعين لإدارتي. مددت لها يدي مبتسما لأتناول المبلــغ، وكانــت يــدي الأخــرى ممســكة، وبالصدفة البحتة، بشهادة حصلت عليها في تصميم النظم من إحدى معاهد التدريب الأجنبية. قلت لها معزيا:

- هذه الشهادة وهذا المبلغ معا يقولان شيئا واحدا، هــو أن هــذا المبلغ يعبر عن قدر رئيس الشركة لا قدري أنـــا، لأن قـــدري موثق في شهادة من جهة لا تعرف التحيز.

وفشلت كافة المحاولات من جانبي لتصفية صدره من جهتـــي. وانهارت بذلك آخر آمالي في النظام الميري. لقد كنت رغم كل ما مر بي حسن النية في المستقبل، وحين صدر قانون الخصخصــــة تصورت أن دما جديدا سوف يأتي لقيادة الشركة أبدأ معه صـــفحة جديدة من العلاقات مع الرؤساء، أي "على مية بيضة" كما يقـــول التصوير الشعبي.

وسار قطار الترقيات أمام عيناي حتى تجاوزني بأكثر من ست سنوات بعد تخرجي.

ولكن الله سبحانه كانت له إرادة أخرى.

حدث أن توفي رئيس قطاع الإمداد والتموين فجأة، وليس فـــي الشركة مستحق واحد للترقية، فكان من المحتم أن أشغل الوظيفة. وهكذا جاءت الترقية مرة أخرى على غير توقع. ولكنها اصطدمت

مرة أخرى بمقالب الميري الذي يأبى أن يجعلني أهنأ بفرحة في رحابه العتيدة.

*****

تقرر أن تقوم الشركة بتنفيذ مشروع لنظم المعلومات. وبدلا من أن تطرح مناقصة للمشروع، أسند بالأمر المباشر لشركة تابعة للقطاع. وشكل رئيس الشركة لجنة لمتابعة هذا المشروع، والذي كان لي فيها دوران، الأول هو اختصاصي بكل ما يمس الأسعار ومعرفة الملائم منها من المغالى فيه، والثاني أنني كنت خبير اللجنة في موضوع الحاسبات طبقا لطبيعة تخصصي وخبرتي العملية وما كنت أقوم به من دراسات في هذا المجال، وهو ما ظهر جليا في نشاطي بعد تسوية المعاش من كتب مترجمة وقاموس للمصطلحات وضعته.

وكون المشروع قد تم بالأمر المباشر هو موضوع قانوني لا يدخل في اختصاصي، ولكن يدخل في اختصاصي المباشر ألا أقبل مشروعا تورد فيه الأجهزة بضعف ثمنها، والبرامج بعشرة أمثال ثمنها، الأمر الذي يعني أن الشركة سوف تلعب مرة أخرى دور البقرة الحلوب لذوي الحظوة على حساب الغلابة من العاملين بها.

وحين لم يؤخذ باعتراضي على العقد انسحبت من لجنة المتابعة. وفي جلسة لجنة المشتريات اعترضت رسميا في محضر الجلسة على قرار اللجنة بالموافقة على المشروع. ومن الطريف أن رئيس الشركة ألحق بتصديقه على موافقة اللجنة عبارة "على بركة الله"، أثبتها تحت اعتراضي مباشرة. ولعله يقصد ببركة الله

مناخ الأمن الذي أشاعته قاعدة الملاءمة الإدارية في مثل هذه الأمور، ذلك المناخ الذي عجزت في ظله أن أقوم بواجبي الوظيفي في مواجهة هذه المخالفة القانونية الجسيمة وأنا في منصب وكيل وزارة، وقد سبق لي أن قمت بهذا العبء قبل عشر سنوات وأنا في درجة مدير إدارة، وسبحان المغير ولا يتغير.

يحلو للبعض – لحاجة في أنفسهم – ترديد القول بأن الفساد موجود في كل بلدان العالم، وهو قول حق أريد به باطل. فوجود الفاسدين في كل البلدان أمر تفرضه الطبيعة البشرية، ولكن أن ينهض نواب الشعب لسن القوانين التي تخلي الساحة لكي يصول الفساد ويجول في أرجاء البلاد مرحا مطمئنا فهذا موضوع آخر تماما.

ولست بحاجة إلى أن أنوه بما جره علي اعتراضي على هذا العقد.

*****

ولم يكن التفكير في هذه الأمور هو ما يشغلني في المقام الأول في واقع الأمر، لقد كان الذهن منشغلا بموضوع آخر تماما.

لقد قاربت الحياة الوظيفية على الانتهاء بحلوها ومرها، فماذا لو مد الله في الأجل وقضيت فترة في المعاش؟ حتى لو لم أكن من المغضوب عليهم فأعتقد أنني لم أكن لأسعى إلى مد خدمتي، فوجودي في الخدمة كاتما على أنفاس مستحقي الوظائف من بعدي أمر تعافه نفسي، علاوة على خوفي من أثر دعاء الناس علي بسبب ذلك. أما الوظائف الاستشارية فليست – بسبب واقعها في نظامنا الإداري – بالتي تثير حماسي. أما البديل الثالث، وهو الاستكانة إلى الفراغ فأمر يملأ قلبي فزعا.

وطرأت فكرة استغلال إمكانيات اللغوية. وكان هـذا دافعـا أن أقوم بدراسة دبلوم الترجمة في كلية الآداب. وحين حصلت عليـه بدأت أمارس هذا النشاط في وقت الفراغ – وما كان أطولـه فـي ظروفي تلك[1] – تمهيدا للتفرغ له بعد المعاش. وحين بدأ الإنتـاج في الظهور فوجئت بفضل الله بزيادة الطلب على إنتاجي لدرجـة جعلتني أفكر جديا في أن أترك الوظيفة العامة التي لم أر فيها خيرا إلا فترات نادرة. وبعد فترة من التردد عزمت أمري وتوكلت على الله ونفذت الفكرة، فأقدمت على تسوية معاشي وكان باقيا لي فـي الخدمة ثلاث سنوات ونصف السنة.

******

أما القشة التي قصمت ظهر البعير ودفعتني إلى عدم التردد في اتخاذ هذا القرار، فقصتها كالتالي:

سبق أن تحدثت عن الأيتام الإدارية، وأن من بينها المخـازن. وأتاحت لي الوظيفة الجديدة كرئيس قطاع للإمـداد والتمـوين أن أشمل هذا النشاط بعين العطف، ومن ذلك التخلص مـن الراكـد والمخلفات. وفي الفترة التي شغلتها في المنصب تمكنت بفضل الله

1– كان يحلو لي التندر منذ المواجهة التي فرضت علي فـي إدارة التـدريب أن أقول إن مرتبي – على ضآلته – أكبر من مرتب رئيس الولايـات المتحـدة، وهو قول صادق من الناحية الحسابية البحتة، لو قسمنا مرتب كل منا على ما يبذله من جهد في عمله بناء على المسئوليات الملقاة على عاتقه. على أن هذا الحساب يقوم على أساس اعتبار العمل بمفهومه الوظيفي الضيق، ولكـن إذا أخذنا الأمر بمفهومه الشامل، وأنني منذ ذلك الحين وإلى نهاية العمل الوظيفي كنت مكلفا بوظيفة أخرى – الرقص مع الديناصورات فسوف يكون للقضـية وجها آخر.

أن أقيم عددا من المزادات لم تشهده الشركة من قبل، وقـد كـان آخرها مزاد للمخلفات من النحاس المتخلف عن عمليات الشـركة، وهو أضخم مزاد في تاريخا، طبعا لارتفاع ثمن النحاس.

وتنص القوانين أن تجنب نسبة 5% من حصيلة البيـع للجنـة البيع، ولكن الذي يحدث عمليا أنه تصرف مكافأة لأعضاء اللجنة، ثم توزع باقي النسبة على العاملين بالشركة، مـع الأخـذ بعـين الاعتبار ما بذله كل عامل في عملية البيع، وفي مقـدمتهم عمـال المخازن الذين يقع عليهم العبء الحقيقي للعمل.

أما في هذا المزاد بالذات فقد سار الأمر بصورة مغايرة تماما، إذ حرم عمال المخازن من المكافأة. وقد علمت بهذا الأمر الغريب بعد عودتي من إجازة تمت خلالها عمل المكافأة. وحـين سـألت رئيسي المباشر الذي تسبب في هذا الحرمان رد بأن السبب هو أن المكافأة كانت كبيرة!

سأترك القارئ برهة يحاول أن يمتع نفسه برياضة ذهنية بلغز من أطرف ألغاز ميرنا المصري، بأن يسأل نفسه كيف يمكن أن يكـون كبر حجم المكافأة سببا في حرمان العمال من الحصول علـى حقهـم الطبيعي منها. وإلى من "غلب حمارهم" أقول لهم السـبب. إن كبـر حجم المكافأة قد ترتب عليه اتخاذ قرار بدخول الإدارة العليـا فيهـا، فأكلت الجزء الأكبر منها، وكلما نعلم أن المتبع في النظام الميري هو أن الحرمان من المكافأة يكون طبقا للترتيب التصـاعدي للـدرجات الوظيفية، فيحرم منها من هم في أدنى السلم الإداري. وللعلم، فإن من أعضاء الإدارة العليا الذين زاحموا هؤلاء الغلابة فـي رزقهـم مـن يحصل على حوافز تبلغ 3000 جنيه كل شهر، أي أن حافزه الشهري يساوي دخل البعض من المحرومين في عامين كاملين.

في اللحظة التي قيل لي هذا التعليل هتفت من أعماقي بـدعاء شاء الله أن يستجيب له في أقل من شهر: رب أخرجني من هـذه القرية الظالم أهلها!

******

وكان المشهد الأخير في علاقتي بالميري ذا دلالة كبيرة. كـان الوداع الرسمي الأخير في مكتب رئيس الشركة، حيث يتم في مثل هذا الموقف تبادل عبارات المجاملة التي يعلم كل طرف أن الآخر لا يعنيها حقيقة. وشاء القدر أن يكون بمكتب رئيس الشركة أحـد رجال الصحافة، فرأى إكمالا للمسرحية أن يقدمني له قائلا:

– فلان بيه، من أعظم العقول اللي عندنا في الشـركة، لكـن وجـد طريقه في مكان أفضل له، يظهر إننا مش مـن مسـتواه. علـى العموم نتمنى له التوفيق." ثم أضاف"هو نشر من فتـرة قصـيرة كتاب مترجم عن السي دي أنا معجب بيه جدا وقريت لغاية نصه.

والسي دي الذي كان يقصده هو قـرص تسـجل عليـه الأغـاني والموسيقى بدرجة عالية من النقاء، يسمع بكثرة في صالات الديسكو.

والواقع أنه لا شأن لي بهذا السي دي من قريب ولا من بعيـد. لقد كان الكتاب الذي نشر لي عن لغة السي، وهي إحـدى لغـات البرمجة في الكمبيوتر. لقد أساء الرجل فهم عنوان الكتـاب. أمـا قوله أنه معجب به ومنكب على قراءته حتى انتهى إلى منتصـفه فلكي يعلل أمامي لماذا إختفى الكتاب حين أهديته لمكتبة الشركة.

وجرت في عقلي عملية حسابية سريعة، وجدت الموقف علـى أساسها منطقي تماما. إن ما بذلته من عمري حتى توصلت لمعرفة

لغة السي، بذله زميلي وخريج دفعتي في إتقان لغة الميري التـــي تقتضي الخلط بين السي والسي-دي، فمن الطبيعي أن يكون الحال بيننا في ساحة الميري هو ما صار كل منا إليه.

وكانت استقالتي هي الوسام الرابع الذي أعتز بالحصول عليـــه من حياتي في الميري، أما التصديق عليه فجاء من كشف الحساب الذي وصلني من بنك مصر متوافقا مع تاريخ تسوية المعـــاش، إذ كان رصيدي قد بلغ 95 جنيها مصريا، هي كل حصـــيلتي مـــن معاشرة الميري لخمسة وثلاثين عاما.

مسك الختام

قال أحمد شوقي رحمه الله:

إن الـــذي خلـــق الحقيقـــة علقمـــا

لم يخـــل مـــن أهـــل الحقيقـــة جـــيلا

ولربمـــا قتـــل الغـــرام رجالهـــا

قتـــل الغـــرام كـــم اســـتباح قتـــيلا

سقراط أعطى الكـــاس وهـــي منيـــة

شـــفتي محـــب يعشـــق التقبـــيلا

عرضوا الحيـــاة عليـــه وهـــي مذلـــة

فـــأبى وآثـــر أن يمـــوت نبـــيلا

وقد شاء الله أن أتجرع في الوظيفة العامة من علقم الحقيقة كئوسا لا حصر لها، صابرا محتسبا أحيانا، ومتلذذا منتشيا أحيانا أخرى.

واليوم، وبعد أكثر من ست سنوات على تحـرري مـن القيـد الوظيفي، أتأمل ما أكرمني الله به من إنتاج فكري ظهر لي في هذه الفترة في شتى المجالات؛ دينية وعلمية وثقافية، وبكافة القنـوات المقروءة والمسموعة والمرئية، علاوة على موقع على الإنترنـت حاز سمعة طيبة بفضل الله في أرجاء الوطني العربي، فأتسـاءل عمن له الفضل – بعد الله سبحانه – في تحقيق هذا الفيض.

وأجد الإجابة ناصعة لا شك فيها، أنه كل من جرعني كأسا من تلك الكئوس على مدى حياتي الوظيفية كلهـا، فمحنـة السـتينات تمخضت عن بعثة ألمانيا والنقـل للقـاهرة، ومحنـة السـبعينات تمخضت عن الحصول على درجة الماجستير في القانون، ومحنة الثمانينات تخضت عن دراسة الترجمـة بكليـة الآداب، ومحنـة التسعينات تمخضت عن التحرر من القيد الوظيفي الذي مكنني من إخراج هذا الإنتاج الفكري للنور. وهذه المفارقة هي خير شـاهد على صدق قول الشاعر:

إذا أراد الله نشـر فضـيلة طويـت

أتـاح لهـا لسـان حصـود

لولا احتراق النـار فيمـا جـاورت

مـا ذاق قـوم طيـب ريـح العـود

وإذا اعتبرنا أن الاضطهاد الوظيفي هو بمثابة النار المقصـودة في البيت الثاني، فإن "طيب ريح العود" قد فاح في واقع الأمر قبل استقالتي بعدة سنوات، أي في خضم فترة اضـطهادي الـوظيفي، وفي مناسبة غاية في الطرافة. فوجئت ذات يوم بأني أشرب كوب الشاي ناسيا أن أضيف له السكر، وانفعال نفسي وجده طعمه المر مناسبا لمرارة الحياة التي أحياها، ومن وقتها لم أضف سكرا لأي مشروب أشربه، وحين سئلت عن السبب صغت الإجابة شعرا في الأبيات الآتية التي تعبر أصدق تعبير عن مكنون نفسي في تلـك المرحلة من عمري:

يعجـــب النـــاس أن رأوني

قـــد شـــربت الشـــاي مـــرا

طعمـــه في الحلـــق أحلـــى

مـــن فعـــال النـــاس شـــرا

رب كـــف مـــن صـــديق

جـــرعتي الكـــأس صـــبرا

يلقـــني في الوجـــه باشـــا

ضـــم مـــني القلـــب جمـــرا

خـــاض عرضـــي مـــن ورائـــي

يـــا لـــه قـــد جـــاء إمـــرا

ناهشـــا في اللحـــم ميتـــا

ذو لســـان بـــالبتر أحـــرى

وهكذا انفجر الاضطهاد الذي تعرضت له شعرا استمرت ينابيعه متدفقة إلى أن قدمت استقالتي، وكان أطرف إنتاج له قصيدة شعرية ضمت مصطلحات الحاسوب، نشرت مؤخرا فـي كتـاب بعنـوان "القصيدة الحاسوبية للمصطلحات الكمبيوترية وطرائف أخرى".

******

أما ما أعتبره مسك الختام لحياتي الوظفية فهو بيت من الشعر سمعتها غناء يقول:

الحمـــــد لله الــــذي شـــــرفنا

بامتحـــان الصـــدق في زمـــن الريـــاء

وقد شاءت إرادة المولى أن أسمع هذا البيت لأول مرة بعد أيام قلائل من تقديم استقالتي، فكان بلسما يشفي الجرح الذي كان وقتها لا يزال داميا،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحتويات

كتب منشورة للمؤلف

✍ اجيال لخدمات التسويق والنشر - القاهرة

- القصيدة الحاسوبية، 2007.
- الميري وترابه، 2007.
- حكايات جدو علي. (تحت الطبع)

✍ طابا للنشر- القاهرة

- الأصولية والعلمانية، تصالح أم تناحر، 2006.

✍ كتب عربية. دوت كوم. [نشر الكترونى]

- نداء إلى عقل الأمة، 2006.

✍ دار خوارزم للنشر – الإسكندرية

أ- تأليف
- معجم مصطلحات الحاسوب، 2000.

ب- ترجمة.
- تحليل وتصميم نظم المعلومات، 1998.
- تبسيط البرمجة، 1998.
- البرمجة الكائنية، 1999.

✍ المجلس الأعلى للثقافة: (ترجمة)

- ما وراء العلم، 1999.
- الهيولية Chaos تصنع علما جديدا، 2000.
- البحث عن حافة الزمن، 2001.
- الهيولية فى الكون، 2002.

الهيئة المصرية العامة للكتاب (ترجمة- مراجعة)

- البرمجة بلغة السي (جزأين)، 1996-1997.
- أسطورة المادة، 1998.
- المساهمة فى ترجمة الموسوعة الإسلامية، 1998.
- المساهمة فى ترجمة الموسوعة العلمية للناشئة، 1999.
- الثلاث دقائق الأخيرة، 1997.
- أفكار العلم العظيمة، 1997.
- آينشتاين، 1998.
- جوهر الطبيعة، 1998.

المكتب الدولى للترجمة والنشر – لبنان (من 1990 إلى 1994)

- ترجمة مجموعة من 4 روايات للشباب من سلسلة أولاد هاردى.
- ترجمة مجموعة من 12 رواية رومانسية.

مطابع الأمين
EL AMEEN PRESS
ت:5634699 موبايل: 0103976098